الفصل الحادي عشر

سنوات التسعينيات اللعينة

يجب علينا الحفاظ على كل ما هو صحي، وقادر على الحياة في الحياة السياسية والمدنية... ولا يصح أن يؤدي إصلاح فرضته الضرورة الزمنية إلى حدوث انشقاق وتباعد مفاجئ بين الماضي والحاضر، بل الأحرى أن نقوم به تدريجيًا حتى يتم استيعابه من قبل الشعب، وألا يصبح بمثابة مغامرة غير مأمونة العواقب.

س. د. سازونوف. وزير خارجية الإمبراطورية الروسية (1910ـ1916م)

مثَّل انهيار الاتحاد السوفيتي الكارثة الجيوسياسية الأضخم بعد الحرب العالمية الثانية، حيث انقسمت الدولة السوفيتية السابقة العظمى، وظهرت مكانها روسيا و14 دولة جديدة. وهناك آلاف الكتب التي تناولت هذا الموضوع. وليس من أهداف كتابنا هذا التطرق إلى أسباب تلك الكارثة وتطور أحداثها وتفاصيلها. إلا أننا تناولنا في الفصول السابقة بالفعل بعد عناصر الأزمة التي عانى منها المجتمع السوفيتي ومنظومة السلطة فيه. ونشير هنا من جديد إلى أنه من وجهة نظر **المؤلِّف** فإن **روسيا** كانت بمثابة الاتحاد السوفيتي، كونها كانت تترأس مجموعة البلدان المستقلة حديثًا، التي كانت في السابق جمهوريات سوفيتية. فالتغير الذي حدث هو تحول حدودها الإدارية مع هذه البلدان إلى حدود دولية (وهو ما أنتج مشكلات لم تجد سبيلاً إلى الحل حتى يومنا هذا)، أما **روسيا** نفسها فبدت وكأنها تعيش في القرن السابع عشر، ودخلت في دوَّامة من الانهيار الاقتصادي والاجتماعي والعسكري والديموغرافي؛ ولذا فإنه من غير الممكن تجاهل تأثير الوضع الداخلي على السياسة الخارجية الروسية بشكل عام، وتجاه الشرق الأوسط والأدنى على وجه التحديد.

يقول **يفجيني بريماكوف**[1]: والذي عرف دومًا بتقديراته المتوازنة وعدم موافقته لآراء **المؤلِّف** وتقديراته الحادة أحيانًا: ''كانت حقبة التسعينيات سنوات فشل روسي. هذا أمر واضح وجلي تمامًا. فخلال التسعينيات فقدنا الكثير في المجال الاقتصادي والعلمي، بل أكثر مما فقدنا أثناء الحرب العالمية الثانية. شهدت تلك الفترة ميلاد هياكل حكم **أوليغاركية**. كان

من الضروري التخلي فقط عن سلبيات الحقبة السوفيتية، والاستفادة بإيجابيات تلك الفترة. أما ما حدث فهو أننا قمنا بتدمير كل شيء تمامًا. في تلك الفترة كان الشرق الأوسط خارج نطاق اهتمامنا بالكامل. كانت أولوياتنا هي علاقاتنا بالولايات المتحدة الأمريكية. وكان من الواضح أن الشرق الأوسط لم يستطع جذب اهتمام **روسيا** إليه. فمن ناحية، لم تكن هناك حرب باردة. ومن ناحية أخرى كانت **روسيا** تعاني من عدم استقرار، وكان زعماء **روسيا** حينها لا يعتقدون أن بلادهم يجب أن تلعب دور الدولة العظمى.''

وفي داخل **روسيا** لم تكن القوى السياسية قد تشكلت بشكل تام، وكانت تعاني الفُرقة والصراعات، وكان هدفها الأساسي هو بناء مجتمع رأسمالي (يقوم على اقتصاد السوق والنظم السياسية الديمقراطية، والحريات، والقيم الغربية والأمريكية)، وكان سعيهم أيضا مُنصبًّا على تدمير الإرث السوفيتي بالكامل. كانت أهداف السياسة الخارجية الروسية تتمحور حول الاندماج في المؤسسات الغربية سواء الاقتصادية أو المالية أو السياسية، أو حتى العسكرية ولو بشكل مستقل. بقيت تصريحات **جورباتشوف** تحظى بالقبول والانتشار ومنها: ''**القيم الإنسانية المشتركة**'' و''**الفكر السياسي الجديد**''.

وكان السياسيون الأمريكيون والأوربيون ووسائل الإعلام الغربية الإلكترونية والمطبوعة، تؤكد طوال الوقت أنه لا منتصر في الحرب الباردة، وأن ''**النظام الشمولي**'' هو الخاسر الوحيد. كانت وسائل الإعلام الروسية تعيد نشر هذه المقالات والتصريحات، وتطرب أسماع الجماهير الروسية التي لم تكن قد حددت وجهتها تمامًا، بعد، ومعها النخبة الروسية التي كانت تتبلور حينها وخاصة الشريحة الموالية للغرب. غير أن هذه الآمال كلها ذهبت أدراج الرياح. لم تكن النخب السياسية والمالية في الغرب مستعدة لقبول **روسيا** عضوًا جديدًا في العالم الغربي.

بدت **روسيا** وكأنها تغرق في بحر من الفوضى العارمة وزاد ضعفها، وفي الوقت نفسه كان الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة يمثل ربع الناتج العالمي، وكانت **أمريكا** تنفق نصف الإنفاق العالمي تقريبًا.

كانت **روسيا** تفتقد القدرة على المنافسة أو تحمل القواعد القاسية للسوق الحر، وبدت عاجزة أمام ضغوط الغرب. كان الفساد يضرب البلاد، وتعرضت الدولة للنهب من قبل هؤلاء الذين صنعوا ثروات كبيرة بسرعة وشركائهم في الغرب. وخلال ربع قرن تم تهريب من

(1-2) تريليـــون دولار إلى الخارج. بدا الأمر وكأنها عقوبة مالية تدفعها **روســـيا** للغرب بعد هزيمتها في الحرب الباردة. انهارت معظم القطاعات الصناعية الرائدة في البلاد، وعادت **روسيا** دولـــة تعتمد على المادة الخام وصـــادرات النفط والغاز إلى دول العالم. وبدا قطاع الصناعات العسكرية على شفا الانهيار. توقفت الأبحاث والدراسات. وأصيب الجيش بالضعف الشديد، وبـــدت الحالة المعنوية للقوات في مســـتوى منخفض تمامًا. وبقـــي **مجمع الصواريخ النووية** الوحيد الذي حافظ على قدراته العسكرية والقتالية.

وفي غمار الانتشـــاء بالنصر الكامل وغير المتوقع على **روســـيا** قـــرر الزعماء الغربيون أن يحصلوا على كل ما هو متاح في **روســـيا**، وأن يجنوا الغنائم الســـهلة، ولم يفكر هؤلاء في أنه ينبغي لتحقيق استقرار النظام العالمي الجديد إنجاز شراكة حقيقية مع **روسيا**، أخذًا في الاعتبار مصـــالح الأمن المتبادل. وقد كتب وزير الخارجي الفرنســـي حينها **يـــو. فيردين**: ''كنا نرى أنفســـنا منتصريـــن في حرب عالمية ثالثة أي الحرب البـــاردة، وكان الغرب يثق أنه يمتلك الآن قدرات غير محدودة وتفوقًا تكنولوجيًّا؛ ولذا لم يكن يرى الأســـباب التي تعيقه لفرض شروطه ووجهات نظره''[2] لماذا يجب علينا أن نضع في حساباتنا مصالح **روسيا** الضعيفة؟''

وقد أطلق **المؤلِّف** على هذا الفصل عنوان: ''**ســـنوات التسعينيات اللعينة**'' مستخدمًا عنوان الكتاب الشهير للكاتب **إيفان بونين**: ''**السنوات اللعينة**''، والذي صدر في سنوات الثـــورة والحرب الأهلية. غير أن هذه الكلمات تثير الاســـتفزاز. فقبل بداية مرحلة اســـتقرار الأوضاع في **روســـيا** وانطـــلاق التنمية، والتطور الاقتصادي، وحـــتى التحول إلى مرحلة دعم القدرات الدفاعية لروسيا توقفت **روسيا** فجأة عن الاتفاق في كل شيء مع الولايات المتحدة الامريكية. حدث ذلك حتى فيما يتعلق بالشـــرق الأوســـط، الذي بدا وأن **روسيا** قد نسيته تمامًا. . .

يقـــول **إ. س. إيفانوف**:[3] «كانت الدولـــة العظمى تعيش تحولات داخلية هائلة. أتحدث هنا عن أزمة شـــاملة وتحولات فوضوية. لم يكن من الممكن ألا ينعكس ذلك على السياســـة الخارجية. بدت **روسيا** وكأنها في وضع جيوسياسي جديد تمامًا. ومثلما كان الحال في المجتمع الروسي، كان على السياسة الخارجية أن تعبر مرحلة «**النشوة الثورية**» وأن تكابد لفترة بعض «**الأمراض الطفولية**».

المؤلِّـــف: ولكن بقيت تقاليد الدولـــة صاحبة الألف عام مـــن التاريخ. بقيت المصالح الوطنية.

إ. **س. إيفانوف:** كانت حالة النشوة والأمل بحدوث تغيرات للأفضل تسيطر على الوعي المجتمعي.

المؤلِّف: من قام بذلك كله هم وسائل الإعلام التي استخدمت شعارًا بسيطًا وهو»**الغرب سيساعدنا**».

إ. **س. إيفانوف:** ليست وسائل الإعلام وحدها من قام بذلك. في بداية التسعينيات بدا للكثيرين أن الغرب قد تحول من عدو إلى صديق، وعلى ذلك فنحن في حاجة فقط إلى تحويل البوصلة السياسية، وعندها ستجد مشاكلنا حلولاً تلقائية. كنا نأمل أن يساعد تحرير الأسعار، وإدماج آليات السوق في الاقتصاد، إلى تحسن الوضع بسرعة وخلق ديناميكية إيجابية للنمو، وكنا نرى أن التقارب مع الغرب سيضمن لنا دعمًا اقتصاديًّا ضخمًا.

المؤلِّف: أتذكر أن **ايجور جيدار** عين رئيسًا للقسم الاقتصادي في صحيفة «**برافدا**» وكان ذلك في الثمانينيات. وقد صرح حينها قائلاً: «يجب أن نغلق أعيننا ونلقي بأنفسنا في اقتصاد السوق.» ها نحن رمينا بأنفسنا كما أراد.

إ. **س. إيفانوف:** نعم كان لهذه التصريحات تأثير على نظرية السياسة الخارجية الروسية التي تم إقرارها في عام 1993م. في بداية التسعينيات كان الرهان على الإسراع باندماج **روسيا** في المؤسسات الأوروبية والأطلسية. كان الحديث يدور حول «**اتحاد**» مع الغرب. إلا أنه لا **روسيا** ولا **الغرب** كانا على استعداد للقيام بذلك. كنا وهم نتفهم فكرة «**علاقات الاتحاد**» بشكل متباين. فالكثيرون في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض بلدان أوربا الغربية كانوا لايزالون في نشوة الانتصار في الحرب الباردة. ولم يكن هؤلاء يرون في **روسيا** الجديدة حليفًا مكافئًا. كانوا يرون أنها، في أفضل الأحوال، يمكن أن تلعب دور الشريك الأصغر. وكانت أية بادرة لاستقلالية القرار الروسي في نظرهم دليلاً على رغبة **روسيا** في العودة الى السياسة السوفيتية الإمبراطورية.

المؤلِّف: كانت المؤسسة العسكرية **للناتو** تقترب أكثر فأكثر من حدود **روسيا**. لم يعترض وزير الخارجية الروسي الجديد **أ. كوزيريف** على ذلك، وكان على استعداد لقبول السياسة الأمريكية في كل شيء. كان من الواضح أنه يعبر عن رأي **بوريس يلتسين**. تجاهل زعماء الغرب وعودهم الشفهية التي قطعوها **لميخائيل جورباتشوف** بألا يتوسع **الناتو** شرقًا. وعلى العكس كانت الجهود مُنصبَّة على عزل **روسيا** أكثر عن محيطها. حتى أنهم رحبوا

بضرب **يلتسين** للبرلمان ثم بالانتخابات التي تم تزويرها بشكل فاضح.

إ. س. إيفانوف: كنت لأفضل الامتناع عن إعطاء تقديرات حادة للموقف، ولكن بالطبع كان توسع **الناتو** في اتجاه الحدود الروسية يتجاهل بوضوح المصالح الوطنية الروسية. وقد استوعبت الدبلوماسية الروسية الدرس بسرعة. ولم تستمر حقبة «**التبعية للغرب**» في السياسة الخارجية الروسية لفترة طويلة.

المؤلِّف: وهل استطعتم حينها تحديد مفهوم «**المصلحة الوطنية**»؟

إ. س. إيفانوف: في تلك السنوات كان ذلك موضوعًا لنقاشات حادة ومستفيضة. فقد كانت الإجابة على هذا السؤال تحدد رؤيتنا للعالم. كان الاستمرار في التعامل «كدولة عظمى» غير ممكن. وأدى الاستهلاك غير العاقل للموارد الداخلية إلى انهيار الاتحاد السوفيتي. وكانت الحكمة تقتضي أن تعمل السياسة الخارجية على خدمة المصالح الحيوية للتنمية الداخلية، كانت المصلحة الوطنية تتطلب توفير الأمن. وخلق الظروف المواتية لتحقيق التنمية المستدامة والارتقاء بمستوى معيشة السكان ودعم وحدة البلاد وسلامتها وخلق قواعد للنظام الدستوري وسلامة المجتمع المدني وحماية حقوق المواطنين في الداخل والخارج.

(لم يشأ **المؤلِّف** أثناء اللقاء أن يعلق على تقديرات الضيف المحترم ووزير الخارجية الأسبق. إلا أنني أودُّ الإشارة إلى أن كل ما قاله كان صادقًا ورائعًا ويمكن أن أقره في كل ما يراه، غير أن رؤاه تصطدم بأنانية ووحشية النخبة الجديدة، التي كانت معنية فقط بحماية مصالحها الخاصة. كان هؤلاء يتجاهلون كل الأهداف المهمة والضرورية للدولة والمجتمع ككل)

إن السياسة، بما فيها السياسة الدولية، تدار من قِبل الأشخاص؛ ولذا فإننا سنمنح الكلمة لشخص عمل سفيراً في الكويت وتركيا وإسرائيل ومنحنا تقييمه للدبلوماسية السوفيتية.

يقول **أ. ف. ستيجني**[1]: في الأيام الأولى بعد انقلاب 1991م جاء إلينا السيد **بوربوليس** مع **كوزيريف** وزير الخارجية. وألقى **بوربوليس** خطابًا قال فيه: إننا على أعتاب حقبة جديدة في تاريخ عمل الدبلوماسية السوفيتية. **أولا:** تحتاج روسيا الجديدة إلى عُشرِ القوة البشرية الحالية في وزارة الخارجية، **وثانيًا:** يجب أن يتم تغيير كل شيء على أساس من حسن النية

١ بيتر فلاديميروفيتش ستيجني (وُلد في ١٤ يناير ١٩٤٥). دبوماسي ومؤرخ وكاتب روسي وسوفيتي ووزير مفوض وفوق العادة لروسيا في الكويت، ومدير قسم التاريخ والوثائق في وزارة الخارجية الروسية وسفير مفوض وفوق العادة لروسيا في تركيا، وسفير مفوض وفوق العادة لروسيا في إسرائيل.

وحســن النظام. اندهشــنا بشدة. كان من الواضح أنه لا يعرف عن أي شيء يتحدث. قال أيضًا: إنه من الواجب تحويل رأســي النسر الروسي على العلم ليصبحا في اتجاه واحد — نحو الغرب. فســألت القاعة إذا كان أحد من الحاضرين يود طرح سؤالاً أو مداخلة فرفع أحدهم يده وكان السيد **ألكسندر افدييف**[1] رئيس قسم الكوادر البشرية بالوزارة حينها.

قال: «في هذه القاعة نرى العديد من رجال الدولة الروس في القرن العشــرين. وكل منهم حضر إلى هنا وهو على أتم الاستعداد للنقاش. هنا يجلس أناس على أعلى مستوى من المعرفة والخــبرة، ولم يكن هــؤلاء يناضلون من أجل مُثل وقيم شــيوعية، بل من أجل تحقيق مصالح وطنهم.» بدأ **بوربوليس** يتصبب عرقًا وأنهينا اللقاء بسرعة. جميعنا يتذكر هذه الحادثة.

المؤلِّف: كيف يقبل العاملون في وزارة الخارجية بشكل عام عملية **البيروستروكيا** في عصر **جورباتشوف؟**

ب. ف. ســتيجني: أغلب الدبلوماســيين وخاصة جيل الوسط والشباب كانوا مؤيدين وبحماســة لسياسة **البيروســترويكا**. ورغم افتقاد **جورباتشوف** إلى القدرة على التعبير ولكْنته التي تكشــف عن انتمائه لمنطقة **ستافروبول**، التي كانت تثير السخرية، إلا أن أفكاره كانت جديدة ومعاصرة. كان رئيس الدولة يتحدث إلى الشــعب دون أن يمســك بورقة، وبدا وكأنه قــادم من كوكب آخر. كنا من داخلنــا مقتنعين بأن الديمقراطية تمثل في المرحلة الحالية أفضل شــكل لتنظيم المجتمع. وأكثر نموذج مقبول لتحقيق مستقبل مشترك يسمح بتجنب الأزمات والصراعــات ويحقــق تجانس المصالح. غير أنه ســرعان ما اتضح للجميــع أن هناك مصالح لأشخاص وجماعات تسيطر على السياسة الواقعية.

المؤلِّف: ما هو الباعث الرئيس إلي ما ساد في التسعينيات؟

ب. ف. ســتيجني: كانت التسعينيات تمثل طريقًا صعبًا مليئًا بالعقبات، ولكن كنا نعي أن علينا اجتيازه كاملاً. شــاعت في تلك الفترة سياســة ازدواجية المعايير من جانب الغرب. وكان عام 1993م عامًا حاسمًا في تاريخنا الحديث عندما قام **بوريس يلتسين** بقصف البرلمان. وأيَّــد الغرب قصف البرلمان الروســي. ثم كان عام 1996م عندمــا كان ثمن إعادة انتخاب

١ ألكسندر أفدييف (مواليد ٨ سبتمبر ١٩٤٦). عمل في الفترة بين عامي ١٩٨٧-١٩٩٠ سفيرًا للاتحاد السوفيتي في لوكسمبورج وفي الفترة بين عامي١٩٩١-١٩٩٢ نائبًا لوزير الخارجية السوفيتي. وفي الفترة ١٩٩٢-١٩٩٦ سفيرًا لروسيا في بلغاريا، وفي الفترة ١٩٨٩-٢٠٠٢م نائبًا أول لوزير الخارجية الروسية. وفي الفترة بين عامي ٢٠٠٢-٢٠٠٨م ســفيرًا لروســيا في فرنســا، وفي الفترة ٢٠٠٨-٢٠١٢ وزيرًا للثقافة في روســيا. ومنذ ٢٠١٣م وحتى الآن سفيرًا لروسيا في الفاتيكان.

يلتسين خصخصة العديد من القطاعات الاستراتيجية الصناعية والاستكشافية. لم يكن صندوق النقد الدولي يكتفي بتقديم المشورة، بل يوجه الإصلاحات الاقتصادية في **روسيا** منذ عصر **إيجور جيدار**. فهمنا حينها أننا ضللنا طريقنا بهذه الرأسمالية الوحشية، وأن الديمقراطية ليست إلا أداة يستخدمها الغرب لانتهاج سياسة مزدوجة. غير أننا رغم ذلك قمنا بمواصلة السير نحو تحقيق الديمقراطية، وحاولنا أن نتأقلم مع التوجهات العالمية.

المؤلِّف: وفي سياق كل هذه الأفكار، كيف كانت أهدافكم في منطقة الشرق الأوسط؟ ماذا كنا نتوقع على وجه الخصوص من استئناف العلاقات مع إسرائيل؟ وماذا جنينا من هذه الخطوة بالفعل؟

ب. ف. ستيجني: أولا: كان استئناف العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل من الموضوعات التي بحثت في الدوائر الليبرالية الروسية بوصفه ضرورة وربما رمزًا لتحول نهج السياسة الخارجية في اتجاه «**القيم الإنسانية المشتركة**». كانت تلك رؤية طبقة الليبرالية الجديدة التي توجب علينا التعامل معها طوال عشرين عامًا. كانت تلك خطوة رمزية، فبعد عام 1967م، وفي السنوات التي لم تكن تربطنا بإسرائيل علاقات دبلوماسية قامت بلادنا بحملة كبيرة ضد الصهيونية، وتم تشكيل لجنة لمكافحة الصهيونية. كانت تلك مجابهة فكرية ليس فقط مع إسرائيل، بل ومع الهرم الغربي بالكامل، الذي كانت الدوائر المالية العالمية تمثل المكوِّن الرئيس له. وتعد الدوائر المالية اليهودية لاعبًا رئيسًا في عالم المال في العالم. وهناك مكوِّن آخر أيضًا وهو وسائل الإعلام التي كان اليهود ذوي نفوذ كبير جدًّا فيها أيضًا. وقد اقترحنا حينها ضم بلادنا إلى هذا الفضاء، حيث تصنع السياسة وحيث تتخذ القرارات المالية المهمة، أي أن نعود مرة أخرى للسباحة في محيط المجتمع الدولي.

المؤلِّف: حسبما أعرف كان المحيطون **بجورباتشوف** يقنعونه بأن هناك قوة كبيرة تدعم **الصهاينة** و**الماسونية**؛ ولذا فقد حاول أن يحصل على اعتراف من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية. تم إنهاء الحملة المعادية للصهيونية، وتم السماح للماسونية والصهيونية بفتح فروع لهما في الاتحاد السوفيتي، ومن بعدها في روسيا. وتم افتتاح الفرع الأول لمنظمة (**بناي بريث**) وهي أقدم منظمة خدمات يهودية في العالم في عام 1988م، ثم تلته مكاتب وفروع أخرى. وقامت هيئة الأمم المتحدة بإلغاء القرار الشهير للجمعية العامة الصادر في 1975م والذي تم بموجبه الاعتراف بالصهيونية بوصفها أحد أشكال التفرقة العنصرية. وفي يونيو 1992م، وبعد أن فقد **جورباتشوف** كافة مناصبه تم استقباله على أعلى المستويات في

إســـرائيل. كنا نرى أننا بذلك نفتح قناة جديدة للاتصال نستطيع من خلاله أن نصبح جزءًا من الغرب كي نحظى باحترامهم وحتى يضعوا في اعتبارهم مصالحنا الوطنية الروسية على الرغم من أننا حينها كنا نجهل ماهية تلك المصالح. كيف ترون ذلك؟

ب. ف. ســـتيجني: أعتقد أننا بالفعل كنا نملك فهمًا مشوشًا لمصالحنا الوطنية، وكانت تصوراتنا ما زالت ســـوفيتية قديمة. كنا نرى أننا ظللنا ســـنوات نصارع الغرب، والآن علينا أن نتصالح معه. اعتقدنا أننا سنبقى أحد أهم قوتين في العالم.

المؤلِّف: لكن ربما كان هناك من يرى أن استئناف العلاقات مع **إسرائيل** يمكن أن يمثل مرحلـــة مهمة نحو إرســـاء علاقات مع النخبة اليهودية الدوليـــة حتى يتحول من عدو لنا إلى حليف أو شـــريك. حدث ذلك في عشرينيات القرن الماضي، كما حدث أثناء الحرب العالمية الثانية. هل كانت تلك أماني ســـاذجة؟ كنا نرغب في استغلالهم، وكانوا هم أيضًا يرغبون في استغلالنا.

ب. ف. ستيجني: ربما لهذا الرأي وجاهته. غير أن الشيء الأهم الذي أصبنا به شركاءنا في **الغرب** وفي **إســـرائيل** هو أننا لم نكن نرغـــب في المزايدة. كانوا يتوقعون أن نقدم تنازلات في حين كنا أســـرى لأفكارنا حول التقارب والاندماج مع الغرب. كنا نرى أن الحرب الباردة قد انتهت دون فائز، وأننا قد حققنا مكاســـب بانتصارنا على النظام الشمولي والأيدولوجية الشيوعية.

المؤلِّف: كانت هذه الجمل والعبارات شائعة حينها.

ب. ف. ســـتيجني: كانت أفـــكارًا عميقة وجادة حينها. ولكن وخـــلال المرحلة التالية وتحديدًا منذ منتصف التســـعينيات وحتى بداية القرن الجديد، شـــهدت السياســـة الخارجية محاولات للتأقلم مع الواقع الصعب والقاســـي الذي فرضته هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية كقطب أوحد على العالم.

المؤلِّف: كانت تلك تطورات مؤلمة وموجعة؟

ب. ف. ســـتيجني: نعم؛ ولذا فإن خطاب الرئيس **فلاديمير بوتين** في **ميونيخ** في عام 2007م قد دشـــن لعصر **روســـيا** الجديد، الذي بدأ من الصفـــر تقريبًا. كان هذا الخطاب بمثابة بداية مرحلة جديدة. ولكننا طالبنا بتأسيس نظام عالمي من نوع جديد يقوم على تعدد الأقطاب والتعاون الواسع والقضاء على ازدواجية المعايير.

المؤلِّف: كانت تلك نوايا طيبة حينها. فهناك فرق بين التصريحات والآمال وبين الواقع.

ب. ف. ستيجني: لو عدنا بالزمن إلى بداية التسعينيات يمكن القول إننا كنا نعي تمامًا أن الحرب الباردة سوف تؤدي إلى استنزاف مقدَّراتنا الاقتصادية والمالية. وفي حال تعادل القوى لا يمكن الحديث عن حل عسكري. بل يتم صياغة قواعد جديدة للعبة في الحالات التي تعجز فيها القوى العظمى أو لا تملك الحق في القيام بصِدام مباشر. وانتشرت الحروب بالوكالة وهو ما تورطنا فيه نحن والأمريكان في الشرق الأوسط لعقود طويلة.

ولكن بعد عام 1991م تشكل نظام عالمي جديد قائم على ازدواج المعايير وعدم التوافق. لم يتفق أحد حول أسباب هذه الكارثة الجيوسياسية التي أودت ببلد كبير كالاتحاد السوفيتي الذي انهار فجأة وبسرعة وأيهم السبب الرئيس: هل الضغوط الخارجية أم المشكلات الداخلية أو الطابور الخامس. . . كانت تلك فترة لم يتحدث فيها **الغرب** أو **إسرائيل** حول انتصارهم علينا في الحرب الباردة كي لا يستثيروا غضبنا.

وفي عام 1991م لم يتم تسمية الأشياء بمسمياتها على الإطلاق. كنا أسرى **فرانسيس فوكاياما** و«**نهاية التاريخ**» ومرحلة الانتقال المشترك نحو نوعية جديدة من التعايش بين سكان العالم ومجابهة التهديدات الإنسانية المشتركة؛ ولذا فقد عدنا إلى الشرق الأوسط بهذه المعنويات. لم نكن نتوقع أو ننتظر شيئًا من **إسرائيل**. كانت **إسرائيل** نفسها تعيش مرحلة صعبة تتمثل في التخلي عن الصهيونية الرومانسية والانتقال إلى الواقع القاسي.

ولكننا فهمنا وبسرعة بعد وصولنا إلى **إسرائيل** أن هذا البلد لا يحتل على الساحة السياسية العالمية دور الملك أو الوزير في رقعة الشطرنج بل هي دولة لاعب متوسط القوى لو شئت الحقيقة. فهمنا ذلك في مرحلة مبكرة بعد استئناف علاقاتنا الدبلوماسية مع **إسرائيل**. وبدون استيعاب السياسة الإقليمية والعالمية كان من غير الممكن أن نفهم التحولات اللاحقة في مسار الأمور في الشرق الأوسط.

المؤلِّف: أتفق معك بدون شك. وهذا هو موقفنا الراهن أيضًا. ولكننا كنا في تلك السنوات نبالغ بعض الشيء في تقدير حجم وقوة اليهود في العالم ودولة إسرائيل. كانت تلك السنوات التي عقد فيها **مؤتمر مدريد** للسلام أو آخر رقصات **جورباتشوف** قبل رحيله عندما كانت بلدنا التي تعيش الانهيار والتفكك تحاول التظاهر من خلال رعاية هذا الحدث أنها ما زالت قوة عظمى. فماذا أجابتنا **إسرائيل** في المقابل؟ هل تحققت التسوية الشرق أوسطية؟

لا أبدًا. ألم يكن دورنا حينها هامشـيًّا غير مؤثر؟ وباسـتثناء بعض التصريحات التي قمنا بها والمبادرات ثم المشاركة في الرباعية وتكرار الأفكار الصحيحة التي تتحدث عما يجب القيام به لم نقم بأي شيء واقعي على الأرض.

ب. ف. سـتيجني: لا أتفق معك في كل ما تقول. فاستئناف العلاقات مع **إسرائيل** لم يكن بالطبع الهدف منه تدعيم مواقفنا بل أن نحقق التجانس بين هذه المواقف في إطار أفكارنا الجميلة حول «**الفكر الجديد**» و» **المجتمع الإنساني العالمي الجديد**». وأنا أرى أن هذا العامل هو الأساسي والمهيمن في الأمر. راهنا على التقارب مع الآخرين.

المؤلِّف: وهل كان لنا دور حقيقي في **مؤتمر مدريد؟** أم كنا ضيوف شرف.

ب. ف. ستيجني: كان دورنا أساسيًّا وعلى قدم المساواة مع **الجور** الأمريكي.

المؤلِّف: أرى أنكم متفائلون للغاية.

ب. ف. سـتيجني: لا. أنـا واقعـي. ففي عام 1991م كان ذلـك هو منطق **مؤتمر مدريـد**. كان ذلك آخر جهد ل**جورباتشـوف**، وكانت تلك محاولة جادة لتحقيق التجانس في العلاقـات في منطقـة محورية من العالم. كنا نعمل بكل شـرف واحترافية ولكن في بداية التسـعينيات أصبحت أدواتنا أقل كفاءة مع الوقت. بدا عصر الحاسوب ولم نكن مستعدين تقنيًا لخوض هذه المرحلة.

ولكـن كان هناك مسـتوى للثقة المتبادلـة بيننا وبين الأمريكان. ولكـن لم نكن قابلين للانقياد ولم يكونوا قادرين على القيادة. إلا أن التطورات في الأحداث أظهرت أننا لم نصل إلى المسـتوى الذي حققه الاتحاد السوفيتي كدولة. أصبح العالم لا يقبل بالحلول البديلة. لم يكن هناك سـوى قوة عظمى واحدة ونمط حياتي واحـد وهو النمط الأمريكي الغربي والديمقراطية الغربية بمعاييرها المزدوجة. اختفت من العالم النظرية اليسـارية البديلة والتي ارتبطنا بها لعقود. وقـد كان لذلك تأثيره بالطبع على قدرتنا على القيام بمهامنا كدبلوماسـيين متخصصين في منطقة الشرق الأوسط.

المؤلِّف: إنكم تناقضون أنفسـكم بعض الشـيء. فمن ناحية كنا رعاة مشـاركين مع الأمريكان، وكان هناك مسـتوى ما من الثقة لدي الأمريـكان فينا. ومن ناحية أخرى هناك أحداث واقعية. فأنتم دبلوماسـيون على درجة عالية من الخبرة والكفاءة ومخلصون لبلدكم.

ولكن كنتم تمثلون بلدًا منهاراً باقتصاد متآكل، بلد قامت قوى جديدة بتمزيقه إرباً وتم تهريب مئات المليارات من الدولارات إلى الغرب وتم إفساد المجتمع بالكامل. لم يكن من الممكن ألا ينعكس ذلك على دوركم ومهامكم. لم تكن لدينا الأدوات الكافية للقيام بعملنا. انظر إلى الأمريكان. حتى لو كانت أدواتهم ضعيفة (وهي في الحقيقة كانت قوية) لما كانوا في حاجة إليها. فخلفهم تقف دولة قوية تدعمهم. أما نحن فماذا كان لدينا؟ كانت تلك سنوات لعينة.

ب. ف. ستيجني: أعتقد أن هناك بونًا واسعًا بيني وبينك فيما يتعلق بتقبل أحداث سنوات التسعينيات. فأنا كنت في قلب المطبخ السياسي حينها، وأما أنت فكنت تراقب الأحداث عن قرب، ولكن رغم ذلك لم تكن على دراية بآليات اتخاذ القرارات. لم يكن لدينا في التسعينيات شعور بالأزمة. كانت هناك العديد من نقاط الارتكاز التي تغذي شعورنا بالحماسة للعمل.

المؤلِّف: كانت تلك محض أوهام؟

ب. ف. ستيجني: من الجيد أن تكون ذكيًّا وفي الوقت نفسه واثقًا جدًا في صحة موقفك وصواب رأيك بعد مرور 25 عامًا على هذه الأحداث وما كان لها من تأثير عليَّ في زيادة النضج والخبرات، وإن كنت أشعر أنني نضجت في اليوم التالي لانهيار الاتحاد أسوفيتي.

المؤلِّف: كنت أقول الكلام نفسه حينها وأكتب نفس الأفكار. سأورد مثالاً: كان هناك اجتماع في وزارة الخارجية بحضور الوزير **كوزيريف**. تحدثت يومها عن الأحداث في أفريقيا والشرق الأوسط وأنه ليس لدينا في تلك المناطق أصدقاء أو حلفاء غربيون بل منافسون فقط. عقب **كوزيريف** حينها قائلاً:» ذاك مثال ينم عن تفكير سياسي عفا عليه الزمن». حتى إن بعض الدبلوماسيين المتملقين عندنا توقفوا حتى عن إلقاء التحية عليَّ.

ب. ف. ستيجني: لا أستطيع أن أقول ذلك عن نفسي. فلم أشعر أننا نعاني كارثة أو أزمة لفترة كبيرة من عقد التسعينيات وحتى عام 1996م. كان لدى شعور أننا نعيش فترة صعوبات كبيرة. وبعد أن حل **بريماكوف** مكان **كوزيريف** ازداد شعوري بالتفاؤل لأننا كنا نثق بشكل مطلق في **بريماكوف**.

المؤلِّف: هذا أمر آخر. نعم بالطبع أثناء التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدتها روسيا بقي هناك أدوات قوية في يد الدولة واصلت مهامها. وفي وزارة الخارجية كان هناك

كثير من المسئولين الذين بقيت مصالح الدولة تحت المكانة الأولى في قائمة اهتمامهم. وكانوا يمارسون عملهم انطلاقًا من هذه القناعة. وكان الدور الذي لعبه **بريماكوف** في ذلك عظيمًا. فهذا الرجل لم يسرق بل عمل دومًا من أجل المصالح الوطنية لبلاده وقام بالكثير وحاول القيام بالكثير. ولكـــن خلفه وخلفك وخلفنا جميعًا لم تكن إلا دولة متهالكة ومجتمع منهار خاضه نخبة كانت مصالح روســيا وقضايا الشرق الأوســط تأتي في المرتبة العاشرة في قائمة أولوياتها. كانت تلك مأساة تلك السنوات. ومأساتكم أيضًا أنتم الذين شاركتم في هذا العمل ومأساتنا نحن من كان قريبًا من الأحداث أي (العلماء الذين سعوا واجتهدوا وطرحوا أفكارًا تهدف إلى تحقيق مصالح البلاد)، أما هؤلاء الذين كانوا يمسكون حينها بمقاليد الأوضاع والسلطة فكانوا غير عابئين على الإطلاق بهذه الجهود والمساعي التي تقومون بها ونقوم وغيرنا بها. أنت تحاول أن تبرر ليس لنفسك بل لجيلك بهذا التفسير.

ب. ف. ستيجني: أنا أحاول أن أشرح الموقف. لم يكن لدينا أي شعور أن هناك خونة في قمة السلطة. ظهر لدينا شعور في فترة ما بعدم الاطمئنان وعدم الثقة في سياسة التآخي مع الغرب تلك التي لم نجد منها إلا المعايير المزدوجة بل وثلاثية ورباعية المعايير في مواقف محددة في الشرق الأوسط. لكن لم نفكر في أي وقت أن الأمر يصل إلى حد الخيانة من القائمين على السلطة. حتى شخصية الوزير **كوزيريف** (إذا قمنا بإحصاء الإيجابيات والسلبيات التي قام بها أثناء عمله بالخارجية) لا يمكن أن تثير الشكوك حوله بل كل التقديرات عنه تتسم بالحيادية.

المؤلِّـف: ذلك لأنه في أثناء الأزمة العراقية ورغـــم رغبته في التخلص من عبء الماضي والقيام بشـــيء يسعد الأمريكيين كان يتوجب عليه أن يضع في حسبانه مصالح بلاده أيضًا. أي أن **روسيا** ظلت كما هي **روسيا** وطالبت بإجراءات معينة.

ب. ف. ستيجني: كنا في الخارجية نرى أنه لولا **كوزيريف** لم يكن ليبقى في الخارجية إلا عُشرُ الدبلوماسيين فقط. لقد بذل جهدًا ووقتًا طويلاً في إقناع **يلتسين** وعرض نفسه للمهانة أحيانًا في سبيل الحفاظ على كوادر الوزارة وأعتقد أن تلك كانت المهمة الأساسية التي قام بها في ظل تلك الظروف غير الطبيعية.

المؤلِّف: تعني الحفاظ على الوزارة كمؤسسة؟

ب. ف. ستيجني: لا!

المؤلِّف: أي كما فعل **بريماكوف** مع الاستخبارات؟ أن حافظ عليها؟

ب. ف. ستيجني: لا. اسمعني. الاختلاف هنا مبدئي. كان يجب الحفاظ على كل المكتسبات الإيجابية التي تحققت في الحقبة السوفيتية الذي كانت هناك جماعات محددة في السلطة تسعى الى القضاء عليها. ولكن هذه الجماعات لم تكن على قدر كاف من الثقة بالنفس إلى تمكنها من إتمام مهمتها الى النهاية فلم ينجحوا في القضاء على هذه المكتسبات تمامًا وبقيت الخارجية الروسية محتفظة على قوامها الأساسي بفضل **بريماكوف** الذي اتخذ خطوة شجاعة بتحويل بوصلة السياسة الخارجية وبالتالي الحالة المعنوية للمجتمع الروسي بأكمله في اتجاه آخر جديد. نجح **بريماكوف** في ذلك وبشكل ممتاز.

المؤلِّف: أنا لا أرى اختلافات ولو بسيطة. هل تستطيع أن تسمي لي هذه «**الجماعات**»؟ أم أن هذا سيبقى سرًّا؟ في الجزء الأول من كتابي المنشور حاولت سبر غور العلاقات المتبادلة لتدخل الخارجية والقسم الدولي التابع للجنة المركزية وفي **الكي جي بي** وبعض الوزراء والعسكريين. أقصد رسم وصف موضوعي للوضع حينها. على سبيل المثال: كيف تعاملنا مع مشكلة تنامي ديوننا تجاه دول الخليج العربي.

ب. ف. ستيجني: أعتقد أنه مازال من غير المسموح الحديث عن ذلك لأن. . .

المؤلِّف: لأن المسئولين ما زالوا على قيد الحياة؟

ب. ف. ستيجني: ليس هذا فحسب. فمثلاً أنا شخصيًّا أكنُّ احترامًا للكثيرين ممن كانوا على رأس السلطة حينها. أتفهم إن كان عليهم اختيار الحلول الوسط أحيانًا والتفاوض مرات كل يوم مع ضمائرهم قبل اتخاذ قرارات مهمة. كانت تلك سنوات شهدت تحولات اجتماعية واقتصادية جذرية. ونظرًا لكونكم تركزون الحديث على المبادرات الشخصية فإنه من الصعب تحديد الفواصل والحدود بين ما كان عقلانيًّا وما كان غير عقلاني في تلك الفترة. أعتقد أننا اليوم على مسافة تاريخية وزمنية من تلك الأحداث لا تسمح لنا بأن نعطي تقييمًا دقيقًا. كان بعضهم يتصرف بعقلانية في مواقف محددة وفي مواقف أخرى تراه يتصرف بشكل مثير للريبة والشك حول نواياه. عندما انخرطنا في الرأسمالية ظهرت أشياء جديدة ومفاهيم جديدة مثل العمولات التي أفسدت الجهاز الحكومي تمامًا. اليوم نتحدث علانية عن قضية ومشكلات هذه النقود والأموال القذرة. وكل هذه المشكلات موجودة أيضًا في الغرب. ربما هناك يبدو في أشكال أخرى مغلفة بالسلوفان؛ ولذا فأنا لا أعتقد أننا نستطيع الآن أن نضع النقاط فوق الحروف في هذه القضية.

المؤلِّف: حسنًا. بالمناسبة في كتابه «**لقاءات على مفترق الطرق**» وصف **بريماكوف** بصراحة وقسوة وحالة الفساد في البلاد في تلك الفترة وتحدث عن محاولاته للحد منه. ربما كان ذلك هو السبب الرئيس لأن يقدم **يلتسين** على إقالته بسرعة.

تجاهل استحالة التدخل. . .

حتى لو كانت العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية والغرب قد هيمنت على فكر السياسة الخارجية ونشاط القيادة الروسية. وحتى لو كانت الأولوية من الناحية الرسمية كانت لعلاقاتنا مع رابطة الدول المستقلة. وحتى لو كان الشرق الأوسط لم يسترع انتباهنا في بداية التسعينيات، إلا أن أهمية الشرق الأوسط والأدنى في العالم دفع **روسيا** إلى المشاركة في قضايا المنطقة بشكل محدود في البداية ثم بشكل أكبر لاحقًا.

صحيح أن الوضع الداخلي في **روسيا** لم يساعد على أن يكون لها سمعة ونفوذ في المنطقة. فطريقة التفكير الإسلامية لا تعترف بالندم على ما فات وما ارتكب من ذنوب. ونظرت بلدان العالم الإسلامي إلى تصرفات الروس في تعذيب وجلد الذات وإنكار الماضي والتاريخ في حقبة السوفييت والتقليل من كل الإنجازات التي تحققت في تلك الفترة باشمئزاز ويصفه أنه دعارة إيديولوجية. وبالنسبة للقوى اليسارية والقومية كان ذلك يعني انهيارًا لمبادئها وأمالها. وكانت النخبة حتى في البلدان التي كانت على الجبهة الأخرى تنظر إلى انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة بوصفها من الضرورات المرة والقاسية.

و قد ساعد انتشار الفوضى في هذه المنطقة **روسيا** على تحقيق تواجد ولو محدوداً. ولكن القادة في **موسكو** كانوا يدركون جيدًا أنه خلال التسعينيات وبداية القرن الحادي والعشرين ستبقى الولايات المتحدة الأمريكية المهيمن على منطقة الشرق الأوسط والأدنى على الرغم من توافر قيود تحد من انتشار هذا النفوذ بشكل مطلق.

و قد صرَّح نائب وزير الخارجية الروسي **ف. باسوفاليوك** إلى رئيس تحرير «**موند ديبلوماتيك**» **أ. جريش** بقوله: «إن كل ما يحدث في منطقة الشرق الأوسط يعد مهمًّا بالنسبة لنا. نعم نحن في حالة ضعف ومواردنا المالية محدودة. ليس في مقدورنا تقديم قروض ومنح بلا حدود إلى حلفائنا. ولا نملك تفويضًا من الشعب الروسي بتوريد كميات غير محدود إلى من الأسلحة. ولكن في الوقت نفسه لدينا عدد من نقاط القوة والتميز»[4] من بينها

أن **روسيا** لم تعد مرتبطة بأُطُرٍ إيديولوجية كما كان الوضع في الثمانينيات مثلاً. لم يكن أحد يعتبرها عاملاً لعدم الاستقرار حيث إنها لم تكن تدعو إلى ثورات أو إلحاد؛ ولذا فقد قامت **روسيا** وبشكل محدود ببناء شبكة من علاقات التعاون مع كل بلدان المنطقة بما فيها المملكة العربية السعودية ومصر وحتى إسرائيل.

وهناك عامل آخر وهو العامل الإسلامي الذي أصبح أكثر أهمية في تشكيل السياسة الروسية في المنطقة. كان للأحداث في الشرق الأوسط والأدنى في الخليج العربي تأثير على الوضع في **روسيا** (وخاصة في منطقة شمال القوقاز – الشيشان وأنجوشيا وداغستان) وكذا على بلدان آسيا المركزية. وقد صرَّح أحد المتخصصين إلى الصحفي **أ. جريش** قائلاً: "كنا نعتقد أننا نستطيع مغادرة آسيا المركزية وأن ذلك يصب في مصالحنا إلا أننا مضطرون من أجل مصالحنا أيضا إلى العودة إلى هناك، وذلك لأن الصراعات التي تتطور هناك تتطلب اهتمامنا"[5].

و قد نظر الكثيرون في موسكو إلى تطور الإسلام السياسي في أشكاله المتطرفة في شمال القوقاز بوصفه تهديدًا ومن بين متخذي القرار كان كثيرون غير أكفاء على غير دراية بالأمر. وعلى كل حال فقد تم إطلاق لفظة «**وهَّابية**» أحيانًا على الشيعة فضلاً عن طوائف السنة التي ترفض قبول المذاهب الصوفية. وأدت المزاعم عن تمويل تركي وسعودي للانفصاليين بالسلاح إلى تسميم الأجواء بين **موسكو** و**الرياض** و**أنقرة**. غير أنه وفي الوقت نفسه كانت العلاقات بين المسلمين الروس وإخوانهم المسلمين في العالم الإسلامي تتطور يومًا بعد يوم.

المؤلِّف: كيف تطورت العلاقة بين مجلس الإفتاء الذي ترأسونه وشركاءكم في **المملكة العربية السعودية؟**

ر. عين الدينوف [6][1]: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. من المعروف أن صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – هم من أدخلوا الإسلام إلى مدينة ديربنت في داغستان. وفي القرن الثامن الميلادي انتشر الإسلام بشكل واسع في منطقة حوض **الفولجا**. وعلى مدى قرون طويلة كانت الشعوب التركية في حوض **الفولجا** و**الأورال** هي الشعوب الشمالية في

١رافيل إسماعيلوفيتش عين الدينوف. وُلد ٢٥ أغسطس ١٩٥٩م. رئيس الادارة الروحية لمسلمي الجزء الأوروبي في روسيا ورئيس مجلس الإفتاء الروسي، وأحد المبادرين لتوسعة المسجد الجامع في موسكو وعضو فاعل في الجمعية العالمية لتقارب المذاهب الإسلامية وأستاذ بجامعة موسكو الاسلامية والأكاديمية السلافية الدولية وعضو في مجلس التعاون مع المؤسسات الدينية التابع للرئيس الروسي.

العالم الإســـلامي. إلا أنه وعلى الرغم من البعد الجغرافي لم يفقد هؤلاء أبدًا اتصالهم الروحي بالأراضي المقدسة في الحجاز.

إننـــا نفخر باختيار مفتي روســـيا **رضاء الدين فخر الديـــن** في عام 1926 الذي ترأس وفداً من العلماء المسلمين السوفييت لحضور المؤتمر الإسلامي العالمي الذي عقد في مكة نائبًا لرئيس المؤتمر الملك المؤســـس للمملكة العربية السعودية. وبفضل جهود الدبلوماسية السوفيتية الممثلة في شخص ممثل **روسيا** السوفيتية في بلدان العالم العربي **كريم حكيموف** الذي أسهم بشـــكل كبير في إرســـاء علاقات الود والصداقة بين الدولة السوفيتية الشابة ومنطقة الحجاز، كانت بلادنا أول الدول التي اعترفت بالدولة الناشـــئة حينها والتي يطلق عليها اليوم المملكة العربية السعودية.

المؤلِّف: تلا ذلك فترة طويلة من الجمود في العلاقات استمرت لسنوات طويلة.

ر. عين الدينوف: لأسباب تاريخية معروفة تم تجميد العلاقات بين البلدين لعقود طويلة. ولكن مع بداية التسعينيات استعاد الروس حرياتهم الدينية في ممارسة عقائدهم. وقد قام مجلس الإفتاء الروسي والإدارة الروحية لمسلمي الجزء الأوروبي بتأسيس الجامعة الاسلامية في **موسكو** والجامعة الروسية الإسلامية في **كازان**.

المؤلِّف: هل يمكنكم أن تتحدثوا لي قليلاً عن حج المسلمين الروس وآفاقه وخصوبته؟

ر. عيـــن الدينوف: منذ قدم التاريخ حرص المســـلمون الروس على الســـفر للحج رغم الصعوبات وبعد المســـافات وعظم النفقات بهدف التطهر ونيل شرف حمل لقب حاج. وقد ســـاعد ذلك على التقارب بين الشـــعب الروسي وشـــعوب منطقة الشرق الأوسط في العالم العربي. وبنهاية القرن التاســـع عشـــر كان متوســـط عدد الحجاج الروس يبلغ سنويًّا (2-5) آلاف حاج. ومع بداية القرن العشرين ارتفع العدد في المتوسط إلى (10) آلاف حاج. ويعتقد الباحثون في شئون الحج أن خلال فترة الحكم الشيوعي أي لأكثر من سبعين عامًا لم يزد عدد الحجاج الروس عن 900 شخص. ولعل أشهر موسم حج من الاتحاد السوفيتي هو الذي تم في عام 1945م بعد انتصار الشعب السوفيتي في الحرب العالمية الثانية وهو أول موسم حج من الاتحاد الســـوفيتي بعد فترة حظر بدأت في نهاية العشرينيات. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي تضاعـــف عدد الحجاج لمرات عديدة. ففي التســـعينيات وحتى العقد الأول من القرن الحالي ارتفع العدد من (10-15) آلاف حاج.

و يبعد العالم العربي عن **روسيا** آلاف الكيلومترات حيث نعيش في ظروف اجتماعية وسياسية مختلفة تمامًا عنهم إلا أن ما يوحدنا هو الدين والأسس الأخلاقية المشتركة. ففي **الإسلام** دين الرحمة قدرة هائلة على توحيد البشر وبناء جسور بين البلاد والقارات والحضارات. وفي سبيلنا إلى تطوير علاقاتنا المشتركة نتمسك بتعاليم القرآن الكريم كما تقول الآيه الكريمة» و**اعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا**». ويجب أن يتجسد ذلك بشكل خاص في أساليب تنشئة الشباب والأطفال المسلمين. يجب أن نربي الشباب المسلم وفقًا لمبادئ حب الناس والمودة والخير والعدل واحترام الشرع. ويجب على المسلم الذي يعيش في القرن الحادي والعشرين أن يكون إنسانًا عالميًّا وكونيًّا.

وفي عام 1990 تم إصدار قانون الحريات الدينية الذي بفضله تم التصريح بإنشاء المؤسسات الدينية وبناء المساجد والمدارس الدينية وطباعة الإصدارات الدينية. وقامت الديانتان الرئيسيتان الإسلام والمسيحية بملء الفراغ الإيديولوجي الذي تشكل بعد انهيار الإيديلوجية الشيوعية. وتوجب على القيادة الروسية حينها أن تأخذ في اعتبارها مشاعر وآمال المواطنين الروس المسلمين (حوالي 17 مليون مسلم). وتمثل الخطر في ظهور وتنامي مشاعر العداء للإسلام في وسائل الإعلام. كما ساعدت الأحداث في الجزائر ومصر والبوسنة التي نقلتها وسائل الإعلام على تغذية مشاعر العداء للإسلام بين المواطنين الروس غير أنه لا يمكن وصف هذه المشاعر بالشمولية والجماهيرية.

و بعد عام 1991م قررت **واشنطن** أن الأحداث في المنطقة يجب أن تتطور وفق الفهم الأمريكي للأهداف الإستراتيجية التي تتطلب أن تخضع لها سياسات دول المنطقة الداخلية والخارجية واستعداد الدبلوماسية الروسية أن تتبع النهج الأمريكي في حل جميع الصراعات في الشرق الأوسط. وخلافًا لموقف الاتحاد السوفيتي لم تستطع روسيا ولم ترغب في استغلال الأخطاء الامريكية.

كان الوضع العام في الشرق الأوسط والأدنى مناسبًا وفي مصلحة الأمريكيين. فقد خرج العراق المدمر تمامًا من اللعبة وتم دعم موقف البلدان الخليجية النفطية ومصر أصدقاء **واشنطن**، كما اشتعل النزاع الداخلي بين الفلسطينيين وأدى تأييد **ياسر عرفات** للعراق في غزوه للكويت إلى إضعاف موقف منظمة التحرير الفلسطينية. تنامي نفوذ **الولايات المتحدة الأمريكية** و**الناتو** مع تفرد **الولايات المتحدة** بقيادة العالم.

و يبدو أن القدرات العسكرية التي دأبت **الولايات المتحدة الأمريكية** على استعراضها أمام العالم قد أظهرت أن **واشنطن** قد تغلبت على أعراض هزيمتها في فيتنام وانتقلت إلى أساليب جديدة في الحرب وأسلحة جديدة ورقمنة للإجراءات القتالية. ولم يكن في مقدور أي طرف أن يواجه هذه القوة مهما كانت لدية قدرات وإمكانات. استخدمت **واشنطن** قوتها العسكرية جنبًا إلى جنب مع القوة الناعمة المتمثلة في الثقافة المعلوماتية والتعليمية والاقتصادية. وبدا أنه لا يمكن اتخاذ أي قرار دون موافقة **واشنطن** أو الأخذ بمصالحها في الاعتبار.

غير أن ديناميكية الأحداث الداخلية قد تطورت وفقًا لقوانينها التي كانت دائما تتعارض والمصالح الأمريكية. وظهرت صراعات وصِدامات ومراكز قوى جديدة. وتحدت إيران الولايات المتحدة ووضعت مصالحها العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية والدينية في مجابهة مصالح **واشنطن**.

كان العراق تحت حكم الدكتاتور **صدام حسين**. وكانت ليبيا وسوريا في عداد «**الدول المارقة**» في نظر **واشنطن**. وحول الإرهاب في **أفغانستان** من حليف لواشنطن إلى عدو عالمي. وفي التسعينيات تحديدًا تأسس تنظيم «**القاعدة**» وهياكله الدولية. وكان للتحولات الثورية التي استغلت القوى المسلحة وسبل إدارة الحروب حدود لا يمكن أن تتخطاها. بدا أنه لا يمكن للحرب واستخدام القوة أن تساعد في حل المشاكل الإقليمية والدينية أو أن تحدد النظام الداخلي للدول والتي تنظر إلى الولايات المتحدة بصفتها «**القوة المنتصرة**». وخلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين أصبح من الواضح أنه لا يمكن لحرب تشعلها الولايات المتحدة الأمريكية أن تحقق استقرارًا أو ميلاد نظم سياسية تتجاوب مع أفكار واشنطن الرسولية.

لم تستطع **روسيا** ولم ترد استغلال أخطاء **واشنطن** المتكررة في المنطقة لمصلحتها. فبعد سنوات طويلة من عدم الاستقرار بدأت **موسكو** تركز اهتمامها على العلاقات الثنائية وأهم مكون فيها هو المكون الاقتصادي بالأساس. واستفادت **روسيا** من غضب الشعوب في المنطقة على أمريكا واهتمام القادة العرب بروسيا ودورها ولو كمعارض رمزي للولايات المتحدة الأمريكية.

وانتهـــت لعبة «**الحـــرب التي لا فائز فيهـــا**». أصبح الدبلوماســـيون الروس يتحدثون عـــن «**النصر المزدوج**» وهو ما يعني النتائج الإيجابية للطرفين **روســـيا** و**أمريكا**. ولكن كان المسئولون في **واشنطن** لا يهتمون بالدعوات للعمل المشترك. لم يكن الأمريكان في حاجة إلى روسيا في منطقة الشرق الأوسط والأدنى.

و في الحقيقة فقد مثلت الرعاية المشـــتركة لمؤتمـــر مدريد بادرة أمل في تحقيق «**فوز ونصر مضاعف**» أي قائم على التعاون والمشاركة في تسوية «**أم الصراعات**» – الصراع في الشرق الأوسط.

عملية مدريد ومصير «أمّ الصراعات»

اســـتمر **مؤتمر مدريد** أو بالأدق «**عملية مدريد**» (برعاية مشتركة من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ثم روسيا) لسنوات عدة. ومن وجهة النظر الفنية تحول اللقاء إلى مجموعات تناقش المشاكل الثنائية ومجموعات أخرى ترتبط بالتعاون متعدد الأطراف. لم يكن من الحكمة والعقل توقع تحول إيجابي سريع في التسوية الشرق أوسطية أو حتى تحقيق تقدم ما للأمام. فمن وجهة نظر القيادة الإسرائيلية، كان الحل الوحيد هو قبول الدول العربية للمطالب الإسرائيلية أي الموافقة على شروط **تل أبيب**. وفي يوم افتتاح المؤتمر بدا رئيس الوزراء الإسرائيلي **إسحق شامير** مؤيدًا متطرفًا لفكرة «**إسرائيل الكبرى**».

بـــدا أن تغيير الحكومة في **تل أبيب** لم يؤثر على خريطة المطالب الإســـرائيلية. ألم تمتلك إســـرائيل قوة عســـكرية لا قِبل للعرب بمواجهتها؟ ألم تقف الولايات المتحدة الأمريكية راعيًا ومدافعًا عنها وشـــريكاً إستراتيجيًّا وهي الدولة العظمى الوحيدة في العالم؟ ألم يكن العرب قد فقدوا راعيهم الحقيقي المتمثل في الاتحاد الســـوفيتي الذي حلت محله **روسيا** الضعيفة التي وإن كانت لم تعلن ذلك صراحة إلا أنها اختارت الابتعاد عن منطقة الشـــرق الأوســـط؟ كانت منظمة التحرير الفلسطينية هي الشريك الوحيد المعترف في إجراء الحوار والمفاوضات. غير أن هذه المنظمة كانت في نظر **إســـرائيل** إرهابية. كمـــا كانت منظمة التحرير أيضًا ترفض إجراء مفاوضات مباشـــرة مع الإسرائيلين وتعتبر ذلك تنازلاً غير مقبول. وعلى الرغم من ذلك فقد أجرى فلســـطينيون ضمن الوفد الأردني الفلســـطيني مفاوضات مع إقرار وأخذ موافقة منظمة التحرير الفلســـطينية على كل خطوة غير أنهم كانوا يمثلون أنفســـهم ولم يكن لديهم تفويض بالتوقيع على أية اتفاقيات.

كان من الواضح أن القيادة الروسية الجديدة غير مهتمة بالتسوية الشرق أوسطية أو بغيرها من قضايا المنطقة. أما وزير الخارجية الروسي **كوزيريف** فقد رفض علنًا كل الإرث السوفيتي ليس فقط في علاقاته مع الشرق الأوسط واقترح على الدبلوماسيين في الخارجية أن يتبعوا سياسة **واشنطن**. أصبحت هذه العلاقة غير منتجه نظرًا لأن الإدارة الأمريكية نفسها لم تعد تعرف ما هي الخطوة القادمة وما هو الهدف النهائي من **عملية مدريد**. صحيح أن **إسرائيل** تمثل بالنسبة لواشنطن حليفًا رئيسيًّا في المنطقة ولاعبًا رئيسيًّا على ساحة السباق السياسي داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة قبيل الانتخابات الرئاسية في عام 1992م. كانت **واشنطن** ترغب في تحقيق تسوية شاملة وقرارات سلمية بهدف الحفاظ على هيمنتها على المنطقة غير أن المطالب المتبادلة بين العرب وإسرائيل كانت غير مقبولة في تلك الفترة.

فمن ناحية دأب علماء السياسة الغربيين والروس على تسمية الصراع الشرق أوسطي «**بالصراع غير المنسجم**» : كانت القوى غير متكافئة والمقارنة غير عادلة بين **إسرائيل** و**منظمة التحرير الفلسطينية** والتي كانت معترفًا بها من قِبل معظم دول العالم بوصفها «**الممثل الوحيد الشرعي للشعب الفلسطيني**». ولكن ومن ناحية أخرى كان يجب تحديد مصير ملايين من الفلسطينيين. لم يكن هناك مكان يمكن ترحيلهم إليه وهو أمر غير ممكن أو مقبول من قبل دول العالم أجمع بما فيها البلدان العربية وحتى الولايات المتحدة الأمريكية. أقصى شيء كان من الممكن أن يوافق عليه الإسرائيليون هو إنشاء إدارة تتمتع بسلطة حكم ذاتي غير مكتملة مع تأجيل البت في مصير القدس وتأسيس الدولة الفلسطينية وحدودها ومصير اللاجئين.

و لكن على الأقل أصبحت كل من **منظمة التحرير** و**إسرائيل** يريان في بعضهما البعض طرفًا مقبولاً للتفاوض المباشر. ساعدت **عملية مدريد** كلا الطرفين على فهم الطرف الآخر واختيار صياغة «**الأرض مقابل السلام**». وبالتزامن مع **عملية مدريد** تم في **أوسلو** تنظيم لقاءات سرية بين الجانبين بعيدًا عن الإعلام وبمساعدة الدبلوماسيين والعلماء النرويج. كنا نعلم بما يجري من مفاوضات إلا أننا لم نشارك فيها قط.

و في مايو 1992م انتهت الانتخابات في **إسرائيل** وفاز تحالف بزعامة حزب العمل برئاسة **إسحق رابين**. وكان الأخير في حاجة إلى نجاح ما ولو كان رمزيًّا. استمرت المفاوضات في **أوسلو** من يناير إلى أغسطس 1993م.

و في سبتمبر 1993م التقى رئيس الوزارة الإسرائيلي **إسحق رابين** ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية **ياسر عرفات** وسلَّم كلٌّ منهما على الآخر أمام البيت الأبيض في **واشنطن**. وقد هيأت الاتصالات السرية والعلنية الكثيرة بين الجانبين لهذه الإشارة الرمزية. كان الاتحاد السوفيتي ومن بعده روسيا قد لعبا دوراً في تهيئة الأجواء فقط، ولكنهما لم يلعبا أي دور في تنظيم هذا اللقاء.

و قد وقع وزير الخارجية الإسرائيلي **شيمون بيريز** وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير **محمود عباس** على إعلان مبادئ يتضمن الدعوة لانتخابات في الضفة الغربية وغزة وانسحاب القوات الإسرائيلية من جزء من الأراضي المحتلة وبداية المفاوضات حول الوضع النهائي للضفة الغربية وقطاع غزة. كان من المفترض أن تستمر هذه المفاوضات لعامين. وتم الاتفاق على تأجيل مناقشة الوضع النهائي للقدس والحدود والإجراءات الأمنية لثلاث سنوات أخرى.

و قبيل توقيع الإعلان قدم الطرفان تنازلات غير متكافئة. ففي رسالته إلى **ياسر عرفات** اعترف **إسحاق رابين** بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للشعب الفلسطيني. أما **ياسر عرفات** فقد اعترف في خطابه بحق إسرائيل في الوجود وبقرارات مجلس الأمن رقم 242 و348 وقدم تعهدات بإلغاء المواد والبنود ذات الصلة بالخارطة الوطنية، التي كانت ترفض الاعتراف بحق إسرائيل في البقاء.

كان فرصة العودة للأراضي الفلسطينية جاذبة ومغرية لأعضاء منظمة التحرير. و قد كنت حينها مراقبًا لانتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني في عام 1996م وتولدت لدي قناعة أن الفلسطينيين قد ربطوا العودة بتحقيق آمال عريضة أكبر. غير أن القضايا الرئيسية التي تتعلق بالوضع النهائي قد تم تأجيلها لأكثر من عقدين كاملين ولم يتم حلها حتى عام 2017 أي بعد مرور 20 عامًا على الاتفاق على ذلك.

و قد تم تسوية العلاقات بين **إسرائيل** و**الأردن** بوساطة **أمريكية**. وقد فهم الملك **حسين** بوصفه مفكرًا إستراتيجيًّا وزعيمًا لدولة صغيرة أنه قد حان أوان التخلي عن الضفة الغربية والقدس الشرقية. وفي يوليو 1994م وفي حضور الرئيس **كلينتون** تم في **واشنطن** التوقيع على اتفاق السلام بين ملك الأردن ورئيس الوزراء الإسرائيلي **رابين** وإيقاف حالة الحرب بين البلدين. وتم التوقيع رسميًّا على المعاهدة في 26 ديسمبر من العام نفسه.

و بعد اغتيال **رابين** على يد متطرف يميني ومن ثم وصول الزعيم اليميني **بنيامين نيتينياهو** إلى السلطة في عام 1996م تم تجميد المفاوضات. وواصلت إسرائيل سياسة إعمار الأراضي المحللة وبناء المستوطنات الجديدة. وأدت السياسات القمعية الإسرائيلية التي واكبت ما سبق إلى تنامي قوة الحركة الإسلامية **حماس** والجناح المتشدد في حركة **فتح**.

و بقي دور **روسيا** في هذه العملية هامشيًّا إذا شئنا أن نقول إنه كان هناك دور روسي من الأساس. وقد ارتبط تدخل بلادنا في أزمة الشرق الأوسط أحيانًا باسم **يفجيني بريماكوف**. وإني على قناعة أن هذا التدخل كان بمبادرة شخصية منه. ولكن عندما أصبح وزيرًا للخارجية الروسية (منذ يناير 1996) تحولت المبادرة الشخصية إلى سياسة دولة. وفي مارس 1996م شارك الرئيس الروسي **بوريس يلتسين** في اجتماع دولي في مدينة **شرم الشيخ** واقترح إحياء **عملية مدريد** للسلام.

لم يعجب الأمريكان بالدور الذي ينوى **بريماكوف** لعبه في المنطقة. وقد كتب **ريتشارد بيرل** ، أحد صانعي نظرية المحافظين الجدد ومؤيدي التدخل في العراق الذي يعاني حسب الكثيرين من الباحثين الروس من «**روسوفوبيا**» قائلاً:» لقد أعادنا **بريماكوف** إلى حقبة **جروميكو**. فهذا الرجل يرفض حتى اليوم الاعتراف بحقيقة أن الاتحاد السوفيتي قد خسر الحرب الباردة. يجب أن يفهم المسئولون في **الكريملين** أن تعيين هذا الرجل وزيرًا للخارجية كان بمثابة خطوة للخلف»[7] وهكذا وبمجرد أن أظهرت **روسيا** بعض الاستقلالية في القرن إذ بالمعلقين الأمريكيين يتحدثون عن العودة إلى أجواء الحرب الباردة.

كانت الإدارة الأمريكية ترى أفكار وشروحات **بريماكوف** عن الأزمة الكويتية جديدة ولها وجاهتها. حينها لم يكن يألو جهدًا في سبيل التوصل إلى تسوية سياسية تضمن انسحاب قوات **صدام حسين** من الكويت وهو الأمر الذي كان يقف عقبة أمام أهداف **واشنطن** في خوض حرب ضد العراق وهو ما حققته في النهاية.

و في أثناء عمله وزيرًا للخارجية قام **بريماكوف** في الفترة بين عامي 1996-1997 ثلاث مرات بزيارة الشرق الأوسط. والتقى خلال زياراته ليس فقط مع مسئولين عرب بل وإسرائيليين أيضًا. وفي إحدى الزيارات قال له زعيم حزب العمل **شيمون بيريز** مباشرة في وجهه : «نحتاج إلى وسيط واحد وهو الولايات المتحدة االمريكية». كان الطرح الذي اقترحه **بريماكوف** باحترام صيغة **مؤتمر مدريد** «**الأرض مقابل السلام**» وتأسيس دولة فلسطينية لا

يلقى أي ترحيبًا من جانب القيادة الإسـرائيلية. غير أن أفكار **بريماكوف** عن تفعيل مشاركة سوريا في المفاوضات قد تم تكرارها مرات في **تل أبيب** و**واشنطن** ولقيت الكثير من الاهتمام. ولو كان النظام السـوري لم يستطع بشكل مستقل تحقيق تسـوية ثنائية إلا أنه كان بمقدوره إعاقة نجاح المفاوضات الإسـرائيلية الفلسطينية. وكان من الممكن حسب **بريماكوف** التعامل مع المطالب السـورية وإعادة مرتفعات الجولان المحتلة. كانت أفكاره أوسع وأشمل لأنها تدعو لتشـكيل منظومة أمن في المنطقة بالتعاون مع واشنطن. غير أن كل أفكاره ومقترحاته ذهبت أدراج الرياح». [8]

و بعـد فوزه في انتخابات 1996 ورغم معارضته الشـديدة لمفاوضات **أوسـلو** إلا أن **بنيامين نتنياهو** قد أظهر مرونة شديدة ووافق على إمكانية مشاركة **موسكو** في التسوية الشرق أوسـطية. وقام **نتنياهو** بزيارة إلى **موسـكو** وهو ما سمح للدبلوماسية الروسية بلعب دور ما في المنطقة. غير أن اهتمام الدبلوماسـية الروسـية في تلك الفترة كان بعيدًا عن منطقة الشرق الأوسـط بل كان مُنصبًّا على منطقة البلقان. قام **ياسـر عرفات** بزيارة إلى **موسكو** في أعوام 1997 و1998 و2000. كما قام عدد من المسئولين الإسرائيليين رفيعي المستوى بزيارات إلى العاصمة الروسـية. وتم تأسـيس لجان روسية إسرائيلية وروسية فلسـطينية مشتركة على مسـتوى نواب وزراء الخارجية. وعقدت خمسة اجتماعات في الفترة بين 1996-1999م. كان الهدف من هذه اللقاءات توضيح المواقف لا التقدم قدمًا للأمام.

و في تلك الفترة كانت الدبلوماسـية الأمريكية تنشـط سـواء على مسرح الأحداث أو خلف الكواليس. ففي 14 ديسـمبر 1998م في **قطاع غـزة** وفي حضور الرئيس **كلينتون** صوت المجلس التشريعي الفلسطيني على قرار بإلغاء البنود التي تتضمنها الخارطة الوطنية بعدم الاعتراف بإسـرائيل وحقها في الوجود وعدم الاعتراف بقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 181 بتقسـيم فلسطين إلى دولتين وعن الصهيونية بوصفها أداه للإمبريالية وغير ذلك. وبمجرد أن تحققت **لبنيامين نتنياهو** هذه المكتسـبات سـارع الأخـير بطرح مطالب أخرى جديدة وأوقف تنفيذ التعهدات السابقة. وقد أدت الانتخابات الطارئة في عام 1999 م إلى وصـول زعيم حزب العمل إيهود باراك الذي حاول بوسـاطة أمريكية إنعاش المفاوضات مع الفلسـطينيين. ولم تحقق اللقاءات التي عقدت في **كامب ديفيد** عام 2000 أية نتائج على الرغم من تحدث الإسرائيليين عن تقديمهم لتنازلات.

و في 26 سبتمبر 2000 بدأت الانتفاضة الجديدة والتي أشعلتها زيارة قام بها **شارون** إلى الحرم القدسي. وفي عام 2001م فاز **شارون** في الانتخابات الجديدة.

و في عام 2000م اقترح الرئيس **كلينتون** خطته للتسوية التي منحت الفلسطينيين حقوقًا كثيرة سواء بالنسبة لقضية الأرض أو وضع القدس واللاجئين. وفي 25 ديسمبر من العام نفسه صرح **باراك** أنه يقبل هذه الخطة إذا ما قام الفلسطينيون بالأمر نفسه. غير أن **ياسر عرفات** وبضغوط من القوى المتشددة في الداخل وعدد من البلدان العربية رفض هذه الخطة. ولم يحصل الفلسطينيون على مقترحات أفضل من تلك بعد ذلك على الرغم أنه في حال موافقتهم على خطة **كلينتون** كانوا سيتعرضون للعديد من الأفخاخ لإفشالها وتحويلها إلى واقع.[9]

و لا يرى **المؤلِّف** دورًا ذا وزن لروسيا في عملية التسوية الشرق أوسطية إلا أن بعض دبلوماسيينا ومنهم **ب. ف. ستيجني** يرى عكس ذلك تمامًا.

ب. ف. ستيجني[10] : لقد أنهينا الحقبة السوفيتية من **عملية مدريد** بشعارها «**الأرض مقابل السلام**». وخلال وقت قصير بدأت اللقاءات الفلسطينية الإسرائيلية في **أوسلو**. ولم يتم تدمير المؤسسات التي كانت قد توقفت عن العمل بل ظهرت مؤسسات أخرى تعمل على أساس الواقع الجديد. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك – ظهور «**الدول السبعة العظمى**» وبعدها ولو بشكل مؤقت « **مجموعة الثمانية الكبرى**» وتلتها «**مجموعة العشرين**». وأخذت هذه الكيانات تعمل بالتوازي مع الأمم المتحدة. والأمر نفسه حدث تقريبًا في الشرق الأوسط. ظلت آلية **مؤتمر مدريد** تعمل جنبًا إلى جنب مع لقاءات **أوسلو** وظهرت هذه القنوات الجديدة والتي التحمت في رأيي مع القوى اليسارية في المجتمع الإسرائيلي ونتج عنها اتفاقات جادة جدًّا. فقد قربت بين الموقفين الإسرائيلي والفلسطيني وتوج ذلك بخطة **كلينتون** الخلاقة في نهاية القرن الماضي. في تلك الفترة وحتى قدوم **نتنياهو** للمرة الثانية على رأس الحكومة ربط الإسرائيليون الدور الروسي في التسوية بفكرة لعب روسيا دور حاسم في تطبيع العلاقات بين إسرائيل والعالم العربي. وقد سمعت هذا الطرح أكثر من مرة من أناس رفيعي المستوى في إسرائيل.

المؤلِّف: كان من الجميل بالطبع الاستماع إلى مثل هذه التعليقات. ولكنها تبقى محض كلمات. . .

ب. ف. ستيجني: لم تكن محض كلمات. كنا نعقد اجتماعات في **موسكو** للإعداد للمباحثات متعددة الأطراف. كان ذلك اهتمام من جانبنا وجهود لم تجد دومًا لها مكانًا على صفحات الصحف ووسائل الإعلام في العالم لكننا قمنا بعمل احترافي كبير وجاد. ومن الصعب تفسير الجمود الذي حدث فيما بعد. حتى الكتب ومذكرات كبار المسئولين التي نشرت لاحقًا لم تستطع تفسير ما حدث.

و إني آمل أن يكتب **باراك** مذكراته يومًا ما بعد أن خرج من السياسة. كما بمقدور **إسرائيل** أن تضمن لنفسها اعترافًا بحدودها من قبل المجتمع الدولي وأن تشرع في تأسيس الدولة الفلسطينية منزوعة السلاح تمامًا وأن تحافظ على وجود قواتها على الحدود مع الأردن وأن تحل بشكل رمزي مشكله عودة اللاجئين. عندها كانت النخبة الإسرائيلية تسير وفق نظرية محددة مفادها أن القدس الشرقية يجب أن تسلم للفلسطينيين.

المؤلِّف: القدس الشرقية أم بعض الأحياء؟

ب. ف. ستيجني: بعض الأحياء بالطبع. المدينة القديمة والحرم القدسي. بالطبع هذه القضية لم يكن قد تم حلها بالفعل. لم تفلح كل محاولات الاتفاق حولها. كانت مشكلة شائكة ومحورية لدرجة أن الكل تجنِّب الحديث عنها. فالدين والقومية شيء واحد عن الإسرائيليين، وهما عنصران لا ينفصمان. وهذا هو الأمر الذي يختلف فيه الإسرائيليون عن غيرهم.

المؤلِّف: الأمر يختلف عند اليهود الأمريكيين. فبينهم من يميز بين الدين والقومية.

ب. ف. ستيجني: هناك الأمر كثير التعقيد.

و قد حاول **المؤلِّف** التأكد من حقيقة الموقف الروسي حول التسوية الشرق أوسطية من السيد **بريماكوف** شخصيًّا. [11]

المؤلِّف: بالطبع سيادتكم على دراية واسعة بقضية الشرق الأوسط وأفضل من أي شخص آخر ربما. هل يمكن القول إننا لم نستطع بالفعل التأثير بأي شكل على تطورات هذه العملية ولم يكن لدينا أي أدوات لتأثير؟

يفجيني بريماكوف: ماذا تقصدون بتلك الفترة؟

المؤلِّف: أقصد التسعينيات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين وحتى السنوات الأخيرة. كانت هناك «**خارطة الطريق**» وكانت هناك «**الرباعية**». ولكن تم إبعادنا من قِبل الأمريكان والإسرائيليين عن التأثير ولعب دور في عملية السلام.

يفجيني بريماكوف: بالطبع لم يكن لدينا أي أدوات للتأثير. كانت الأدوات كلها في يد الأمريكان. ولو كانوا أرغموا إسرائيل على قبول الحلول الوسط حينها لكانت المشكلة قد حلت لأن العرب كانوا قد قدموا بالفعل خطوات وتنازلات جادة. إلا أن الأمريكيين لم يجرؤوا على تجاوز «**خط أحمر**» محدد.

ونظرًا لأن التسوية الشرق الأوسطية قد ظلت مجمدة في العقدين الأول والثاني من القرن الحادي والعشرين فإننا سنقفز بعض الشيء إلى الأمام لنقيم طبيعة العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية. ففي فبراير 2001م أصبح **شارون** رئيسًا للوزراء، وبدا في حملة عنيفة لقمع الانتفاضة الفلسطينية. وقد أدت هذه الإجراءات إلى تحقيق بعض النجاحات الإسرائيلية لكنها في الوقت نفسه دفعت قطاع عريض من الفلسطينيين نحو التطرف وتحول البعض منهم إلى العمليات الإرهابية. كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين وتصاعد يومًا بعد يوم.

انتهت عملية **أوسلو** بسفك الدماء وكانت هناك حاجة إلى سبل أخرى لاستئناف الاتصالات. وفي مايو ويونيو 2002م قامت الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي بتشكيل ما عرف «**بالرباعية**» وهي عبارة عن أربع وسطاء دوليين لتسوية قضية الشرق الأوسط. وقد أقرت الرباعية خارطة طريق صاغها في معظمها الأمريكان. وكان الهدف الأخير هو تأسيس دولة فلسطينية بدون تحديد إطار أو حدود أو صلاحيات.

و كانت السلطات الإسرائيلية تتصرف في تلك الفترة وفق منطقها فقد قررت الابتعاد عن الفلسطينيين والانسحاب من قطاع غزة وبعض القرى في الضفة الغربية وبناء سور عازل بين الإسرائيليين والفلسطينيين في الضفة الغربية.

و في يونيو 2004م قام مجلس الوزراء الإسرائيلي بالموافقة على خطة رئيس الوزراء بانسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة وترحيل (8) آلاف مستوطن وإخلاء أربع قرى أخرى في شمال الضفة الغربية. تم ذلك رغم المعارضة الشديد من جانب حتى أنصار **شارون** في الجناح اليميني للسلطة السياسية. وقد كرر رئيس الوزراء **أولمرت** نفس السياسة — سياسة الابتعاد والانعزال عن الفلسطينيين. وقد كشفت هذه السياسة أن القيادة الإسرائيلية ترفض

ابتــلاع وتذويب كافة الأراضي المحتلة في 1967م مع ســكانها. إلا أن بناء المســتوطنات الإسرائيلية في المناطق التي لم يكن الإسرائيليون يرغبون في تسليمها كان يجرى على قدم وساق ما جعل من المســتحيل على الفلسطينيين المشاركة في أي عملية مفاوضات وإلا لكان الأمر يدعو للسخرية الشديدة.

ب. ف. ســتيجني[12]: كانــت هناك فرصة لحدوث تجانس بــين المقاربات المختلفة تجاه القضية الفلسطينية. ولكن لم يتم استغلالها بسبب موقف إسرائيل والمؤسسات العالمية الكبرى التي ترعاها. تم ارتكاب الكثير من الأخطاء من قبل الفلســطينيين أيضًا. فعدم توقيعهم على خطة **كلينتون** في عام 2000 و2001م كان خطأً كبيرًا. أما **أولمرت** ففي أثناء توليه رئاسة الوزراء اقترح حل كافة القضايا الأساســية الأربعة. كانت المفاوضات في **أوســلو** قد انتهت. وكانت هناك مفاوضات جارية بين **أولمرت** و**محمود عباس** في عام 2009م. إلا أن عملية **أوســلو** كانت تدفع بشــكل إيجابي عملية المفوضات الجارية. كما كان ابتعاد **شــارون** عن السياســة والانسحاب من قطاع غزة من الأشياء التي منحت فرصة لاستئناف التفاوض. الا ان الطرفين لم يحســنا استغلال هذه الفرصة أيضًا. وقد سألت **محمود عباس** حينها وكثيرين من رجال السياسة الفلسطينيين : لماذا فعلتم ذلك؟ في كل مرة ترفضون التوقيع على ما يقترحه الأمريــكان الذيــن يقف خلفهم المجتمع الدولي كله تفقدون فرصــة ويأتي المقترح التالي أكثر سوءًا. كان من الواضح أن الآتي أسوأ. لقد تكرر ذلك مرات. في فترة **أولمرت** كان الخلاف على 5–6% من الأراضي. لقد شاهدت الخريطة بأم عيني.

و إذا قفزنا للأمام بعض الشــيء يمكن الإشــارة إلى أن الولايــات المتحدة الأمريكية قد طرحت لاحقًا مشــروع الشرق الأوسط الكبير ومن ثم الشــرق الأوسط الجديد وما يتضمنه من طرح لحل هذه المشــكلة. وفي عام 2006م رأينا نتيجة ذلك في الانتصار الذي حققته حركة **حماس** الراديكالية في قطاع **غزة** والضفة في الانتخابات التشــريعية التي جرت بشــكل ديمقراطي تمامًا. كان ذلك إشــارة إلى فشل مشــروع دمقرطة المنطقة على الطريقة الأمريكية والذي تأكد في ســنوات «**الفتنه العربية**» أو «**الربيع العربي**». وســوف نتوقف عند ذلك بالتفصيل لاحقًا. نشــير هنا أيضًا إلى أن حركة **حماس** قد تأسســت في عام 1987 بدعم من المخابرات الإســرائيلية التي كانت تهــدف إلى القضاء على هيمنة فتح في منظمة التحرير الفلسطينية. كان الفساد المستشري في قيادة المنظمة وغياب أي تقدم في المفاوضات والدماء التي ســفكت أثناء الانتفاضة الفلسطينية عوامل ساعدت على فوز **حماس** في الانتخابات.

وبعد أن سيطرت الحركة على قطاع **غزة** قامت عناصر الحركة بإطلاق صواريخ وزرع ألغام داخل الحدود الإسرائيلية ما نتج عنه رد فعل غير متكافئ من جانب الجيش الإسرائيلي.

و سياسيًّا لم تعترف حركة **حماس** بحق إسرائيل بالبقاء والوجود ورفضت كل الاتفاقات السابقة التي أبرمتها منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت على استعداد فقط لإبرام هدنة طويلة الأمد. وقد تسبب الشقاق في الصف الفلسطيني إلى جبهتين إلى التشكيك في شرعية أي إجراءات أو اتفاقيات تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة **محمود عباس** والذي تولى القيادة بعد وفاة **ياسر عرفات** في عام 2004م.

و من حيث المبدأ تحرص **روسيا** على تحقيق تسوية لقضية الشرق الأوسط ودعمت الاتصالات بين أطراف الصراع بما فيها **حماس**. وكان تأثير أزمة الشرق الأوسط على الأحداث في العالم دافعًا شجع قادة روسيا على زيارة المنطقة. وفي عام 2005م قام الرئيس الروسي **بوتين** بزيارة **إسرائيل**. وفي أثناء لقائه مع **شارون** طرح بوتين سؤالاً: «أنا جديد على الشرق الأوسط. بم تنصحني؟» وكان الجواب: «لا تثق أبدًا بأي شخص». «كانت تلك الجملة بمثابة مزحة تاريخية ولكن وفي أثناء أحد الحوارات بيني وبين الوزير **لافروف** قال الأخير: كان الأمر كذلك بالفعل. كنت حاضرًا أثناء هذا اللقاء وسمعت السؤال والجواب».

و في يناير 2011م زار الرئيس **ميدفيديف** الأردن والضفة الغربية ثم قام الرئيس **بوتين** في عام 2012م بزيارة **إسرائيل** والضفة الغربية والأردن. ولم يكن أحد يعول أي آمال على هذه الزيارات. كان الحديث يدور فقط عن دعم العلاقات الثنائية.

و قام زعيم **حماس خالد مشعل** بزيارات عديدة إلى **روسيا** حتى إنه التقى مع وزير الخارجية **سيرجي لافروف**. إلا أن محاولات **موسكو** لتحقيق مصالحة بين **فتح** و**حماس** لم تؤت بأي ثمار. صحيح أن كلا الطرفين قد وقَّعا أكثر من مرة على اتفاقيات مصالحة وتأسيس حكومة وحدة وطنية إلا أن الأمر لم يكن يتطور أكثر من ذلك.

و بدت **واشنطن** مقيدة وعاجزة عن التأثير في مسار التسوية الشرق أوسطية. كانت هناك مشاعر عداء لأمريكا تتصاعد يومًا بعد يوم في منطقة الشرق الأوسط بسبب مواقفها في أفغانستان وباكستان والعراق وإيران. وفي أثناء زيارته للقاهرة صرح الرئيس الأمريكي أوباما يوم 4 يوليو 2004 عن دعمه لإنشاء دولة فلسطينية دون تحديد لأطرها ووصف بناء إسرائيل للمستوطنات غير الشرعي وغير القانوني. كما أيد التعاون بين أمريكا والعالم الإسلامي

على أســـاس القيم المشـــتركة. كل ذلك أدى إلى بعض البرود في مستوى العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

روسيا وإسرائيل «صداقة» بشروط

مع بداية التسعينيات كان الجميع يتحدث عن ضرورة استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومن بعده **روسيا** وبين **إسرائيل**.

و أكرر ملاحظة ســـبق وإن ذكرتها سابقًا في الكتاب. عندما اندلعت فجأة موجة الهجرة الجماعية لليهود الســـوفييت خلال الســـنوات الثالثة والرابعة والخامسة من البيروسترويكا كان السبب يكمن ليس في كون اليهود السوفييت يريدون الهجرة الى هناك تحديدًا. بل كان السبب هو رغبتهم الشـــديدة في مغادرة الاتحاد الســـوفيتي إلى أي وجهة. وكان السبب الأساسي في هجرة اليهود أنهم كانوا أكثر طبقة تعاني من الأزمة العميقة التي شهدتها البلاد في تلك الفترة ولديهم فرصة وملجأ يفرون إليه.

كانت **موســـكو** تنظر إلى قضية استئناف العلاقات الدبلوماسية مع **تل أبيب** من منظور السياسة الإقليمية ولكن مع مظلة أكثر شمولية واتساعًا. كان القادة الروس يأملون في الانضمام والانصهار في بوتقة المجتمع الغربي بشكل عام. وكان التعاون مع الصهيونية وعلاقات الغرب بإسرائيل مكونًا أساسيًّا من مكونات المؤسسات والكيانات الغربية الكبرى. وكانت النوايا في اتجاه نســـيان والكف عن الربط أيديولوجيا بين الصهيونية وشعارات ''**العنصرية**'' و'' **خدمة الإمبريالية**'' التي كانت شائعة في الدعاية السوفيتية سابقًا. وفي الوقت نفسه كانت الشيوعية تنهار شيئًا فشيئًا سواء في **روسيا** أو **أوربا** الغربية.

بدأت مســـاعي الاتحاد السوفيتي وإســـرائيل لاســـتئناف العلاقات الدبلوماسية في نهاية الثمانينيات. قام الاتحاد السوفيتي بإلغاء حظر الهجرة واتخذ موقفًا إيجابيًّا أثناء الأزمة الكويتية العراقيـــة وتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية في رعاية مؤتمر **مدريد للســـلام** الذي انطلق في أكتوبر 1991م. كل هذا فتح الطريق لتبادل الســـفراء. وقد ســـبق ذلك القيام بعدد من الخطوات والإجراءات الفنية في سبيل استئناف العلاقات الدبلوماسية.

و في 23 ديسمبر 1991م تم منح السفير السوفيتي في **تل أبيب** أ. **بوفين** أوراق اعتماده وفي اليوم نفسه تحول إلى سفير لروسيا في إسرائيل.

و كان عمل السفير في ظروف مختلفة حيث كانت أغلب وسائل الإعلام الروسية تهاجم كل الإرث السـوفيتي القديم ومواقف الاتحاد السوفيتي في الشـرق الأوسط. وكانت مشاعر العداء للإسلام وللعرب والتعاطف مع إسرائيل في تصاعد. ويعتبر السفير **بوفين** نفسه صحفيًّا وعالماً سياسـيًّا محنكًا، وكان هو نفسـه ديمقراطي النزعة وموالِيًا للغرب، وكان يكنُّ مشـاعر تعاطف مفرط تجاه إسـرائيل. وكان لا يستطيع تفهم مشاعر ومأساة وأهداف وآمال العرب في فلسطين. ولكن رسميًّا كان يتخذ موقفًا مناقضًا. [13]

يقول **أ. بوفين:** كان اهتمام روسـيا بالشرق الأوسـط مُنصبًّا في المقام الأول على عدم السـماح باندلاع الحرب وحتى لا نجد أنفسـنا أمام خيار مؤلم. هذا **أولاً**، و**ثانيًا** كان هدفنا الاسـتفادة من القدرات العلمية والفنية لإسـرائيل للتخفيف من حدة المرحلة الانتقالية التي يمر بها اقتصادنا وأدوات السـوق. أما النقطة الثالثة فتتمثل في تواجد حوالي مليون روسي في إسـرائيل. وهي أكبر جالية لنا حينها في أي بلـد في العالم وهو موقف ووضع غريب. فعلى مدى ثلاثين عامًا كنا ننتقد إسرائيل ووصمناها بكل ما هو مشين، وقمنا بحملة دعائية داخل الاتحاد السـوفيتي ضد السـامية وضد اليهود وقمنا بقمع اليهود والتضييق عليهم. على مدى ثلاثين عامًا كنا نطلق على اليهود الذين يهاجرون خونة ولكن الغريب أن هؤلاء يحبوننا. بدا تأثير الثقافة الروسية هناك قويًّا وأقوى من الثلاثة عقود المخيفة تلك؛ ولذا فقد اتخذت موقفًا داعمًا للشراكة الإستراتيجية مع إسرائيل فلدى إسرائيل إمكانات وقدرات فريدة للقيام بعمل إيجابي مشترك. والعمل سيتم ليس فقط مع اليهود المقيمين في إسرائيل بل مع كل يهود العالم. إن علاقات وطيدة وقوية مع إسـرائيل هي بمثابـة علاقات قوية مع الجالية اليهودية في العالم وانضمام إلى الأسواق العالمية الكبرى. وهكذا فإن السلام في الشرق الأوسط والاستفادة من القدرات التكنولوجية الإسرائيلية والتواصل مع الجالية اليهودية تمثل المصالح الأساسية لبلادنا.

المؤلِّف: وكيف تعاملتم في موقف كهذا مع القواعد التي قامت عليها سياساتنا تجاه هذه المنطقة؟

أ. بوفيـن: كانت الصحافة العربية تكتب عني كثيراً وتتهمني أنني أميل لإسـرائيل. وقد تحدثت أكثر من مرة عن ذلك في إسـرائيل وقلت :" لسـت داعمًا لإسرائيل بل إن انتمائي وولائي لروسـيا". وفي الحـالات التي تتطابق فيها مصالح بلادي مع مصلحة اسـرائيل فإني سـأتبنى الموقف الإسـرائيلي. وحين تتطابق مصالح روسـيا مع المصالح العربية سأتبن الموقف العربي. وذلك لأنني أعبر عن مصالح روسـيا. وقد بعثت من **تل أبيب** برسـالة إلى **موسكو**

أطالب القادة هناك بمنح العرب مزيد من الاهتمام.

المؤلِّف: ألا تلاحظون أن هناك جدلاً دائراً في بلدنا حول المستوى الذي يجب أن تكون عليه علاقتنا بإسرائيل؟ وفي الوقت نفسه هل تؤثر إسرائيل على مؤسسة السلطة في روسيا؟

أ. بوفين: لا أشعر أنهم الآن في **موسكو** يفكرون في إسرائيل. فروسيا غارقة في مشكلاتها وسياساتها الداخلية والخارجية تجاه **أوربا** ثم تجاه الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اقترحت إسرائيل العديد من الفرص للتعاون المشترك. ليس لدينا مؤسسات لتحقيق هذا التعاون. ليس لدينا من يمكن أن يصبحوا شركاء لإسرائيل قي الداخل. للأسف لا يوجد تأثير لإسرائيل علينا. أحاول أن أنظم هذا التعاون. أقوم بمخاطبة **موسكو** وأخبرهم أنه طالما بقيت مشاعر الكراهية للسامية لا يمكن أن نأمل في التوصل إلى علاقات وطيدة مع إسرائيل. يجب القضاء على معاداة السامية وإحياء الثقافة اليهودية والمسارح والصحف الخاصة بهم.

المؤلِّف: ومن الذي يمنع من تحقيق ذلك؟

أ. بوفين: لا أحد يعيق ذلك ولكن أن تساعد أيضًا مشكلة كبيرة.

المؤلِّف: وكيف ترى دورنا في إرساء علاقات متبادلة بين إسرائيل والفلسطينيين؟

أ. بوفين: التسوية السلمية هي الهدف الرئيس. ومهمتنا مع الأمريكيين هي توفير الظروف والأجواء السياسية لإجراء مفاوضات مباشرة بين إسرائيل وجيرانها العرب والفلسطينيين. يجب أن يتفقوا فيما بينهم، ويجب أن يجد الطرفان حلاً وسطاً وأؤكد أنه يجب أن يحدث ذلك بدعم منا وأن نسهم في تهيئة الظروف لتحقيق ذلك. فالأمن الإسرائيلي إذا ما تم تهديده فإن التسوية السياسية أيضًا ستنهار بالتأكيد. وإذا ما لم تحترم حقوق الفلسطينيين فإن المصير هو نفسه. المعضلة الأساسية والمأساة تتمثل في أن كلا الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني على حق؛ ولذا فإن هذه القضية عصية على الحل. يجب أن يتغير المزاج الإسرائيلي والعربي.

و في مارس 1997 تم استبدال **بوفين بميخائيل بوجدانوف** سفيراً لروسيا لدى إسرائيل. وفي فبراير 2002 تم تعيين **ج. تاراسوف** خلفًا **لبوجدانوف**. كانوا جميعًا دبلوماسيين على قدر كبير من الكفاءة.

و في عام 2007 تم تعيين دبلوماسي كفء أيضًا وهو **ب. ستيجني** وظل في منصبه حتى 8 يوليو 2011م.

و تطورت العلاقات الثنائية بين روسيا وإسرائيل بنجاح.

المؤلِّف: [14] هل كان لرفع الحظر على هجرة اليهود خاصة والهجرة من روسيا عمومًا تأثير ما؟

يفجيني بريماكوف: بالطبع كان لها تأثير على العلاقات الروسية الأمركية والروسية الإسرائيلية. ففي الولايات المتحدة كان هناك قانون يضر كثيراً بمصالحنا الاقتصادية وعلاقاتنا مع واشنطن. كان السماح بالهجرة إلى إسرائيل سببًا في تغيير الموقف. كما كان له تأثيره في تحسن العلاقات بين روسيا وإسرائيل. بالطبع كانت هناك معارضة شديدة من العرب نظرًا لأن هذه الهجرة كانت عامل دعم وزيادة في قوة دولة إسرائيل.

المؤلِّف: بالإضافة إلى أن المليون مهاجر يهودي لم يكن لهم دور قوي بعد.

يفجيني بريماكوف: لا أتفق تمامًا معك. يجب أن نفرق بين الكم والكيف. إذا أخذنا بالكيف فإن كثيرين منهم قد أسهموا في الارتقاء بإسرائيل وتنميتها.

المؤلِّف: وصل أكثر من مليون مهاجر يهودي من روسيا ولكن الدول العربية كانت أيضًا تسمح لمواطنيها اليهود بالهجرة إلى إسرائيل في تلك الفترة. والآن في إسرائيل هناك عدد أكبر من اليهود من ذوي الأصول العربية أو أبنائهم، أكبر من عدد القادمين من روسيا وبلدان رابطة **الكونواث**.

يفجيني بريماكوف: هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى كان من الضروري الوضع في الحسبان علاقاتنا بالعرب. يبدو لى أن هجرة اليهود خاصة والهجرة من روسيا بشكل عام ربما تتوقف. الأمر يعتمد على وضعنا السياسي والاقتصادي.

ساعدت الهجرة الجماعية من روسيا والجمهوريات السوفيتية السابقة في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي على تشكيل أقلية ناطقة بالروسية في إسرائيل يبلغ عددها حوالي مليون نسمة. في البداية كانت تأشيرة إسرائيل ما هي إلا وسيلة للهجرة النهائية بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ثم قامت الحكومة الإسرائيلية بالضغط على واشنطن لفرض

تأشـــيرة لمن يرغب منهم في الانتقال لاحقًا إلى أمريكا فوجد هؤلاء أنفسهم باقين في إسرائيل ســـواء رغبوا في ذلك أم لا. ووجد هؤلاء في إســـرائيل سبلاً للعيش فاســـتقروا فيها وأسهموا في تعميرها. وفي الســـنوات الأولى كان هؤلاء يأتون الأهمية بعد المواطنين الإســـرائيليين ثم بعد المهاجرين من أوربا الغربية ثم ســـرعان ما تأقلموا وقاموا بتأسيس أحزاب سياسية قوية ونافذة. كان أغلب المهاجرين الروس ينتمون إلى أحزاب يمينية. لم يكن للفكر اليساري وجود بينهم.

لم يساعد تواجد جالية روسية كبيرة **روسيا** في أحداث تأثير ونفوذ كبير. بل عل العكس من ذلك كان لهؤلاء تأثير قوى على السياسة الخارجية السوفيتية ثم الروسية. استطاع الإسرائيليون من خلال اتصالاتهم الحصول على معلومات ضخمة ونوعية عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في **روســـيا** حتى إن المخابرات الأمريكية كانت تحســـدهم على ذلك. كان على القادة الروس عدم إغضاب إسرائيل سواء في الدوائر المالية والاقتصادية أو في وسائل الإعلام.

و كانت **إســـرائيل** تدعم **روسيا** في عدد من القضايا وخاصة تلك التي تتعلق بالإرهاب. وإذا كان الأمر لا يعني إســـرائيل أو السياسة الإقليمية فإن **تل أبيب** كانت حريصة على عدم إغضاب أو اســـتفزاز **موســـكو**. ففي قضية البلقان وتحديد مصير **كوســـوفو**، كان الموقف الإسرائيلي قريبًا جدًّا من الموقف الروسي. وعندما اندلع الصراع في **أوسيتيا** الجنوبية (أغسطس 2008) لم ينتهج الإعلام الإســـرائيلي نظيره في الدول الغربي في مهاجمة روســـيا على الرغم من أن وزير الدفاع الجورجي في تلك الفترة كان المواطن الإسرائيلي **ديفيد كيزيراشفيللي** وكان معظم معدات الجيش الجورجي إسرائيلية الصنع. [15]

وبعد بضع ســـنوات كانت حقبة ذروة الدعم الإســـرائيلي للموقف الروسي عندما غاب منـــدوب إســـرائيل أثناء تصويت الجمعية العامة للأمم المتحـــدة في قضية القرم. ومن الناحية الشكلية كان هناك إضراب من قبل العاملين في وزارة الخارجية الإسرائيلية للتغطية على الأمر إلا أنه كان من الواضح الرسالة التي تريد أن تبعث بها **تل أبيب** بعدم المشاركة في التصويت.

و سنعود لاحقًا للحديث عن قضية إيران النووية.

كان التعاون بين إســـرائيل وبين حليفها الإســـتراتيجي وراعيهـــا الأول الولايات المتحدة الأمريكية كان بالطبع لا يقارن بالعلاقة مع روســـيا. غير أن العلاقات الروســـية الإســـرائيلية تحظى بأهمية كبيرة بالنســـبة للبلدين. فالعلاقات الثقافية بينهما قوية. ومعظم الفرق المسرحية والموسيقية الروسية زارت إسرائيل ولهم هناك جماهير عريضة. كما نشطت في **إسرائيل** جمعيات

صداقة روسية إسرائيلية كثيرة ومراكز لتعليم اللغة الروسية والثقافة الروسية. ومع ارتفاع أعداد الجالية الروسية الأرثوذكسية زاد الاهتمام بالمقدسات المسيحية.

ففي عام 2008م تم إعادة بعض المباني المسيحية (مبني وقف **سيرجييف**) الذي شُيِّدَ على نفقة الجمعية الفلسطينية الأرثوكسية إلى الحكومة الروسية. واستمرت المفاوضات طويلاً بين الحكومتين حتى التوصل إلى هذا الاتفاق حيث كانت هناك معارضة شديدة من بعض المؤسسات الإسرائيلية.

المؤلِّف: خلال عملكم سفيراً تم الاتفاق على استعادة هذا المبنى، هل هناك أي مبانٍ مملوكة لروسيا ما زالت لم يتم استعادتها؟

ب. ف. ستيجني: [16] في عام 1964 وفي إطار "**صفقة البرتقال**" قمنا ببيع 22 قطعة من أراضي "**فلسطين الروسية**".

المؤلِّف: خطأ كبير قد ارتكب. ولا سبيل لإصلاحه.

ب. ف. ستيجني: نعم خطأ. ولكن كانت هناك ظروف تاريخية. وهذا حديث طويل. "**ففلسطين الروسية**" هي نتاج لجهود أناس عظماء ارتكبوا الكثير من الأخطاء. عندما عدنا بدأت الحرب العالمية الأولى وفي فترة الانتداب الإنجليزي كانت ديوننا قد بلغت 140 ألف روبلاً ذهبيًّا. ثم تضاعف الدين وفي الستينيات اضطررنا لبيع الأرض مقابل البرتقال.

و في 27 أبريل 1994 تم إبرام اتفاقيه بين روسيا وإسرائيل لتنظيم العلاقات التجارية. وقد منح كل طرف للآخر ميزة البلد الأولى بالرعاية وتم تشكيل لجنة مشتركة. بدت مجالات التعاون متنوعة وكثير من المهندسين الروس الحاصلين على الجنسية الإسرائيلية وجدوا بسرعة لغة مشتركة مع زملائهم الروس. واستطاعت إسرائيل إطلاق عدد من الأقمار الصناعية بفضل الدعم الروسي. وفي بداية عشرينيات هذا القرن ظهرت شركات روسية في مشروعات التنقيب عن الغاز الإسرائيلي في البحر المتوسط. وفي عام 2013م قام تحالف يضم شركة إسرائيلية وأخرى روسية (**موسميروستروي**) بإنشاء نفقين على الخط السريع **تل أبيب – القدس**. نما حجم التجارة بين البلدين وبلغ في السنوات الأخيرة حوالي 3 مليارات دولار أمريكي.

و من الظواهر الجديدة على العلاقات الثنائية بين البلدين التعاون في المجال العسكري. ففي منتصف التسعينيات تم التوقيع على اتفاقية تقوم بمقتضاها **إسرائيل** بتقديم دعمها

وخبراتها في مجال مكافحة الإرهاب لنظيرتها **روسيا**. وفي عام 2003م تم توقيع اتفاقية إطارية للدفاع عن حقوق الملكية الفكرية تلتزم بموجبها إسـرائيل بدعوة الشـركات الروسية لتحديث التقنيات الروسية (**العسكرية**) في دول ثالثة.

وفي عام 2010 ولأول مرة في التاريخ تم التوقيع على اتفاقية روسـية إسـرائيلية طويلة الأجل للتعاون في المجال العسكري والتقني. ومنحت إسرائيل روسيا ترخيصًا لإنتاج الطائرات بدون طيار.

المؤلِّف: تربطنا بإسـرائيل علاقات طيبة. على أي أسـاس تقوم هذه العلاقات؟ انتهت مرحلـة الهجرة. وحجم التجارة يبلغ 3 مليارات دولار وهو رقم كبير جدًّا لكنه لن ينمو أكثر مـن ذلك. تأمل شـركاتنا في العثور على الغاز ولكن لا مقارنـة مثلاً مع حجم الانفتاح في العراق. في حين أن سياستنا كثيراً ما تستفز هذه الأخيرة.

ب. ف. سـتيجني: [17] أعتقد أنه يجب التحدث عـن معايير أخرى خاصة في علاقاتنا بإسرائيل. نحن مرتبطون تاريخيًّا. قال **نتيناهو** بشكل مباشر إنه وبدون الجالية الروسية لم تكن **إسرائيل** لتبقى حتى اليوم. هذه حقيقة يعترف بها الجميع. ويجب أن نعترف أن **إسرائيل** ممتنة لنا. فهم يذكرون ما حدث في عام 1948 ولكن العسكريين الإسرائيليين دائمًا ما يكررون: "بدون 1945 لم تكن 1948 لتحدث".

المؤلِّف: صحيح. بدون النصر على ألمانيا النازية لم تكن إسرائيل لتوجد.

ب. ف. سـتيجني: هـم يذكرون ذلـك. في مدينة **نيتاني** على البحر المتوسـط هناك نصب تذكاري وحيد عن الجيش الأحمر شـيده الإسـرائيليون بمبـادرة منهم وعلى نفقتهم. بالمناسـبة تم بناؤه قبيل زيـارة **بوتين** في عام 2012م. هناك أناس مـا زالوا على قيد الحياة يذكرون هذا. التقيت في مرتفعات الجولان مع إسرائيلي يدعى **ياشا** وهو ابن الطبيب الخاص **لشـولوخوف**. يبدو كشخص قوزاق سـوفيتي جذوره يهودية. أذكر كيف أخذ يكرر أمامي عبارات **شولوخوف**. هؤلاء الناس تحديدًا هم قوتنا في علاقاتنا مع إسرائيل.

المؤلِّف: هل ما زالت هذه القوة موجودة؟

ب. ف. ستيجني: إنها في ازدياد.

المؤلِّف: ألن يصبح أبناؤهم إسرائيليين أمريكيين؟

ب. ف. ستيجني: لا. فهم يدرسون الروسية سواء في العائلات أو في برامج تعليمية. هناك تطور يحدث. في مختلف المجالات. يحتفلون يوم 6 يونيو بعيد ميلاد **بوشكين**. تلقيت دعوات على الأقل من ستة أماكن في هذا اليوم. اخترت إحدى القرى المجهولة وإذا بفريق يعزف موسيقى **تشايكوفسكي** بشكل رائع يجعلك تطالبهم بعدم التوقف. وصور أشجار عيد الميلاد الروسية مغطاة بالجليد تغطي حوائط النادي. عندما تناقش الطبقة المثقفة هناك يتذكرون كل شيء ثم يشرعون في البكاء عندما يتذكرون الاحتفالات بشجرة عيد الميلاد. حتى الشباب. هناك على الأقل 150 يهوديًّا نالوا لقب بطل الاتحاد السوفيتي. هل يمكنك تصور أنهم صنعوا نصبًا تذكاريًّا لكل منهم. عندما ذهبت إلى هناك شعرت وكأنني أستمع إلى أغنية "**الدروب**". قلت : " **أغانينا**"، فردَّت إحدى العجائز :" لا إنها أغانينا نحن. فنحن من نقلها إلى العبرية كما كنا نقاتل عام 1948 ونحن نستمع إليها" أتحدث عن الأشياء والتفاصيل التي لا يمكن لعالم السياسة أن ينتبه إليها وتلك هي الخلطة العجيبة التي تشكل علاقاتنا المشتركة مع إسرائيل.

المؤلِّف: هل سيبقى هذا الود الإسرائيلي تجاهنا طويلاً؟

ب. ف. ستيجني: إن المواطن الإسرائيلي المعاصر هو في كثير منه نتاج لثقافة روسية أو بالأحرى نتاج لمزيج بين ثقافتين اليهودية والروسية. تلك الروح السلافية المثيرة والغامضة تتعايش في إسرائيل مع الروح اليهودية التي لا تقل عنها إثارة وغموضًا. وهنا يظهر طراز جديد. أنا هنا لا أقول إن إسرائيل **تتروسن** مع الوقت. هم في الواقع يحبون اللغة والثقافة الروسية. وخلافًا لأشقائنا الأوكران ليس لديهم أي عقد أو شعور بالنقص. هناك بالطبع جزء من الروس ينتقل إلى ثقافة أخرى لكنه لا ينسلخ في الوقت نفسه من جذوره الروسية بل إنهم دائمو الفخر بهذه الجذور.

أراضي العراق الملغومة

بعد أن قامت الولايات المتحدة بتدمير العراق اتخذت **واشنطن** إجراءات كي لا تسمح بتمكينه من إعادة بناء قواته المسلحة من جديد وخاصة قدراته على إنتاج أسلحة الدمار الشامل. وقد وافق كل أعضاء مجلس الأمن على هذه الإجراءات. وأدت العقوبات الدولية

الــتي صدرت عن المجلس إلى حظر تصدير الســلاح إلى العراق وقلصت من صادرات النفط العراقيــة وقائمة الســلع التي يمكنه اســتيرادها من الخارج. وينص القــرار رقم 687 الصادر في 3 ابريــل 1991 علــى الإخلاء الكامل للعــراق من كافة الأســلحة النووية والجرثومية والكيمائيــة والصواريخ بعيدة المدى ومع ذلك بقيت العقوبــات الاقتصادية المفروضة عليه. وقام فريق من المفتشين الدوليين التابعين للأمم المتحدة بمهمة مراقبة عملية نزع سلاح العراق. وتابع هؤلاء عملية تدمير مخزونات الأسلحة الكيميائية والجرثومية والصواريخ ومصانع الإنتاج. وقامــت لجنة الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالتنســيق مع اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة بتدمير كل البنية الأساسية لإنتاج الأسلحة النووية والمواد الانشطارية.

و قد سمح برنامج الأمم المتحدة ''**النفط مقابل الغذاء**'' للعراق باستيراد السلع الإنسانية. وفي عام 1995م تم توســيع قائمة السلع المســتوردة وفي عام 1999م تم السماح بتصدير كميــة أكبر من النفــط. وفي حين كان هناك حظر مطلق على جميع واردات الأســلحة وتم تطبيقه بنجاح تام، فقد كانت عملية تصدير النفط تشــهد حالات تهريب ضخمة حيث تم بيعة بتخفيضات كبيرة في السعر إلى تركيا والأردن أو تم خلطة بالنفط الإيراني وتصديره كمنتج إيراني.

و بشكل عام لم تشهد العراق مجاعة غير أنها عانت من نقص في الدواء وهو ما أثَّر على صحة السكان وأدى إلى ارتفاع نسبة الوفيات من الأطفال.

و قد حصلت القيادة العراقية في مقابل تدمير أســلحة الدمار الشــامل والصواريخ على هدفهــا في إلغاء العقوبات أو الحد منها بشــكل كبير. واكتســبت العلاقات مع لجنة الأمم المتحدة طابع المواجهة. طالب المفتشــون بالســماح لهم بالدخــول إلى كافة المواقع وفي أي وقت وأي مكان على أرض العراق سواء القواعد العسكرية أو القصور الرئاسية. ورأى **صدام حسين** في ذلك إهانة شخصية، وكان على قناعة بأن هذه اللجنة تضم عناصر من المخابرات الأمريكيــة والبريطانية يقومون بجمع معلومات بهدف توجيه ضربات لاحقة للعراق. وقد أدى رئيس اللجنة الأسترالي **ريتشارد باتلر** الدور الذي رسمته له **واشنطن** على أكمل ما يكون.

و اعتقد المســئولون في **واشــنطن** أن فشل **صدام** في مغامرته في الكويت والآثار الكارثية للعقوبات ســوف تدعم المعارضة العراقية وتؤدي إلى ســقوط النظام البعثي. وكان من شأن ذلك أن يؤدي إلى تغيير الخريطة السياسية في الشرق الأوسط في الاتجاه الذي تريده **واشنطن**

والسـيطرة في الوقت نفسـه على النفط العراقي. كان النظام القمعـي البعثي قد تخلف عن الركب كثيراً رغم أن النظام الحاكم نفسه في العراق كان ما زال متماسكا بعض الشيء. كان أضعاف العراق يعني تنامي النفوذ الإيراني في المنطقة وهو ما أثار العديد من التسـاؤلات التي تتعلق بفعالية ونجاعة السياسة الأمريكية في المنطقة.

و لكـي يسـترجع هيبته في داخل العـراق ويلغي العقوبات قام **صدام حسـين** ببعض التصرفات الاستفزازية تجاه الولايات المتحدة الأمريكية. في عام 1994م قام بتحريك وحدات من قوات النخبة العراقية إلى الحدود مع الكويت أملاً في أن يساعده استعراض القوة هذا على إلغاء العقوبات أو تخفيفها. كان ذلك بمثابة فرصة لواشنطن لاستعراض قوتها وتأكيد من هي القوة الرئيسية في المنطقة ومعاقبة العراق.

و عندما أصبح الخطر بحدوث أزمة كويتية ثانية واقعًا قام وزير الخارجية الروسي **كوزيريف** بزيـارة إلى بغداد. وأقنع القيادة العراقية بالبدء في سـحب القـوات من الحدود مع الكويت والاعتراف بسـيادة هذا البلد. واتخذت الأمـم المتحدة قرارها رقم 949 والذي تضمن نصه تكرارًا لبعض ما جاء في البيان المشـترك الروسـي العراقي:'' يؤكد العراق على استعداده لحل إيجابي لقضية الاعتراف بسـيادة الكويت وحدودها وفقا لقرارات مجلس الأمن رقم 833''[18] وإجمالاً وبدعم من الصين وفرنسـا سعت روسـيا إلى إضعاف العقوبات على العراق غير أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تصر على موقفها.

و قد علق **كوزيريف** على الأحداث قائلاً :'' منذ البداية صرحنا أن استخدام القوة لحل هذه القضية يجب أن يبقى الخيار الأخير. وقد راهنا على نجاح المبادرات السياسية. وكان ذلك هو هدف زيارتي التي قمت بها إلى المنطقة بتكليف من الرئيس الروسي''. [19]

كانت الولايات المتحدة الأمريكية غير راضية عن أداء شريكهم المخلص **كوزيريف** ذلك لأن نشاطه قد أعاق إيجاد المبرر والتوقيت لتوجيه ضربة للعراق من قبل **واشنطن**. أما **المملكة العربية السعودية** و**الإمارات العربية المتحدة** فكانتا تدعمان الموقف الروسي.

و الجدير بالذكر الإشـارة إلى أن تصرفات **كوزيريف** كانت تثير نقاشات حادة في داخل **روسـيا**. فهناك وسائل إعلام روسـية رحبت وأيدت جهوده وأخرى انتقدته. وكان المنتقدون هـم من الصحف الموالية للغرب مثل ''**موسكوفسـكي كومسـومولیتس**'' التي كتبت على سبيل المثال :'' لمرة أخرى نجحت مساعي **موسكو** في حرمان **واشنطن** من ثمار توجيه ضربة

عسكرية مؤثرة. ومن جديد يبدو ''**النصر الدبلوماسي**'' الروسي ذو رائحة عطنة وتسيطر على الأجواء مكتسبات سياسية موضع شك''[20].

و لم يستطع رئيس لجنة الشؤون الدولية **بالدوما ف. لوكين** وهو السفير السابق في **واشنطن** وذو الميول الغربية أن يمنع نفسه من انتقاد **كوزيريف** علناً:'' هؤلاء الذين يعشقون الظهور والرياء هم من سيقضون علينا. مرة أخرى يظهر على السطح هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم صنَّاع السلام العالميين''. والنتيجة أننا استطعنا إفساد علاقات العمل مع الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كان هدف ميدان **سمولينسكيا** هو استفزاز الدولة الأقوى والأغني في العالم فإن هذا الهدف قد تحقق''. [21]

ووقعت أزمة أخرى في العلاقة مع اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة وكان ذلك في عام 1997م. في تلك الفترة كان وزير الخارجية هو **يفجيني بريماكوف** الذي اعتبر أن الأمريكيين في حاجة إلى مبرر لتوجيه ضربة عسكرية. وطالب **صدام حسين** إخراج المفتشين الأمريكيين الدوليين من العراق على وجه السرعة. ولكي يقنع صدام بخطورة وجدية الموقف قامت **روسيا** بدعم قرار مجلس الأمن الذي أدان العراق حيث تمت الموافقة على القرار بالإجماع.

و في 17 نوفمبر بعث **يلتسين** إلى **صدام حسين** برسالة :'' سنقوم بكل ما يتوجب علينا فعله لتفادي توجيه ضربة عسكرية للعراق. اليوم تحدثت مع الرئيس **كلينتون** الساعة العاشرة صباحًا. . . و أود أن أطلب منكم ألا تكتفوا بالتأكيد علنًا أن العراق لا يعارض التعاون مع لجنة المفتشين الدوليين. ليس هذا فحسب بل وأن تعرضوا عليهم العودة للعمل في العراق لمواصلة عملهم الطبيعي. وأعني هنا أن يعودوا بكامل طاقمهم السابق. . . وأتمنى منكم التعامل مع هذا رسالتي لكم بمنتهى الجدية''[22] وفورًا توجَّه **طارق عزيز** (نائب رئيس الوزراء العراقي في الفترة بين عامي 1979-2003) إلى **موسكو**. وعقدت مباحثات بين الطرفين في 19-17 نوفمبر. وتم إعادة لجنة التفتيش إلى العراق يوم 20 نوفمبر. وتم تسوية الأزمة بوساطة روسية غير أنها سرعان ما اشتعلت مرة أخرى في العالم التالي ما أدى إلى توجيه ضربات عسكرية أمريكية إلى العراق.

اعتقدت **روسيا** أنه إذا استطاعت العراق إثبات قيامها بتدمير كامل لأسلحة الدمار الشامل ولم يعد لديها قدرة على إنتاجه فإنه بالتالي يتوجب التخفيف أو إلغاء العقوبات. وقد أيدت فرنسا والصين هذا الموقف. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا كانا

على استعداد لإلغاء أو تخفيف العقوبات بشرط غلق كامل ملف أسلحة الدمار الشامل والصواريخ.

كانت التصرفات الاستفزازية **لصدام حسين** مسوغًا جديدًا للولايات المتحدة وبريطانيا لتنفيذ ضغوطها العسكرية والسياسية على العراق.

و مكافأة لروسيا، قام العراقيون يمنح الشركات الروسية إمكانية تصدير السلع الغذائية وتلك التي ليست لأغراض عسكرية إلى العراق. كان المردود الاقتصادي لذلك على روسيا محدودًا ومدعاة للسخرية، حيث كانت **روسيا** في تلك الفترة نفسها عاجزة عن إنتاج وتصدير الكثير من السلع. أما الشركات الروسية فقد تنشط كوسيط بين الدول.

وقَّعت الحكومة العراقية مع شركات روسية عقدًا باستكشاف آبار نفط في القرنه الغربية. غير أن دخول العقد حيز التنفيذ كان مشروطًا بإلغاء كامل للعقوبات المفروضة على العراق. ولم تكن الدبلوماسية الروسية حينها قادرة على كبح جماح رغبة أمريكا في التدخل العسكري أو التصرفات الاستفزازية **لصدام حسين**.

توقفت اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة عن العمل فعليًّا في عام 1998م. وفي الفترة بين عامي 2000-2002 لم يسمح العراق لمفتشي الأمم المتحدة بالدخول إلى العراق، وطالب بإلغاء العقوبات الاقتصادية.

تركيا تصبح شريكًا تجاريًّا مميزًا [23]

شهدت التسعينيات انخفاضًا في التعاون الاقتصادي بين **روسيا** وبلدان الشرق الأوسط باستثناء **إسرائيل**. وقد تقدمت **تركيا** في تلك الفترة لتحتل المرتبة الأولى، حيث اقتنع الطرفان إنهما يكملان بعضهما البعض من الناحية الاقتصادية. وبلغ حجم التبادل التجاري رسميًّا حوالي 5 مليارات دولار. ازدهرت تجارة الشنطة. ووفقًا لتقديرات بلغ حجم واردات **روسيا** من السلع الضرورية التركية حوالي 5 مليارات دولار في عام 2000م. وكان ذلك يوفر عشرات آلاف الفرص الوظيفية للمواطنين الروس والأتراك. اندفع المواطنون الروس في موجات لزيارة تركيا والاستمتاع بمنتجعاتها السياحية. وفي نهاية التسعينيات تحولت السياحة الروسية إلى تركيا إلى ظاهرة عمت أرجاء روسيا وتضاعف عدد السياح في العقد الأول من القرن الحالي. كما ازدهرت مشاريع البناء التركية في روسيا.

و مع الوقت أخذت المشـــاريع المشتركة تظهر إلى الوجود. كان الاقتصاد التركي الصاعد في حاجة إلى موارد طاقة وكانت **روسيا** تتوفر على طاقة فائضة.

و في التسعينيات تم إنشاء قاعدة تفاوض قانونية للتعاون المتبادل وفي المجالات الاقتصادية والسياسية.

و في مايو 1992م تم التوقيع على اتفاقية بين الحكومتين التركية والروســية حول تشكيل لجنة حكومية مشــتركة للتعاون الاقتصادي والتجاري المشترك ، وبعدها بأيام تم التوقيع على معاهدة تؤسس لقواعد العلاقات بين روسيا الاتحادية والجمهورية التركية. وأكّد الجانبان نيتهما لدعم وتوطيد العلاقات الودية والتعاون في دعم الاستقرار في المنطقة.

و في أبريــل 1994م تم التوقيــع على اتفاقية للتعاون في المجال الفني والعســكري ومجال الصناعات الدفاعية. واتفق الجانبان على التعاون الفني العسكري في عدد من المسارات المهمة بما فيها إعداد وتأهيل الكوادر. ووافقت **روسيا** على توريد طائرات هيلوكبتر إلى **تركيا**. ثم تلى ذلك توقيع عدد من الاتفاقيات التعاون الثقافي والسياحي والجمركي والعلمي.

و شــهدت زيارة رئيس الوزراء الروسي **ف. تشــرنوميردين** إلى **أنقرة** التوقيع في ديسمبر 1997 التوقيــع على ســبع اتفاقيات حكوميــة ومعاهدات وبروتوكــولات. ومن بين هذه الاتفاقيــات تلك الــتي تتعلق بإلغــاء الازدواج الضريبي فيما يتعلــق بالضرائب على الدخل وتشجيع حماية الاستثمارات المتبادلة والتعاون في مجال الطاقة وغيرها.

و لكــن الاتفاقية الأهم كانت تلك التي تنظم عمليــة توريد الغاز الطبيعي إلى **تركيا** عبر البحر الأسود. وتم تحديد كميات الغاز الطبيعي التي التزمت روسيا بتوريده. أما **تركيا** فالتزمت بكمية الشراء. وأشار الطرفان إلى ارتفاع الكمية من نصف مليار متر مكعب في عام 2000 الى 16 مليــار متر مكعب في الســنوات 2025-2007م. واتفق الجانبان على بناء خط غاز بين **روسيا** و**البحر الأسود** ثم عبر كامل الأراضي التركية. وفي نوفمبر 1999م تم ترسيم مســار خط الغاز "**الســيل الأزرق**" الذي ينطلق من قرية **ايزوبيلنويا** في **روسيا** إلى مدينة **سامسون** التركية. وفي أبريل 2000م تم إبرام اتفاقية تعاون في مجال حماية الفضاءات البحرية في البحر الأسود.

و تطورت العلاقات الروسية التركية بشكل غير متجانس. فالخلافات السياسية كانت كثيراً ما تصطدم بمنطق الاقتصاد. ومن بين نقاط عدم الفهم المتبادل كان مشروع بناء خط النفط **باكو – تبليسي – جيهان**. وفي ظل تجاوبها مع دعوات الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية وأملاً منها في الحصول على مداخيل إضافية دعمت تركيا بناء هذا الخط الذي يستهدف نقل النفط من منطقة بحر القزوين متجاوزاً الأراضي الروسية. كان هذا المشروع ذا صبغة سياسية واضحة.

المؤلِّف: كان لموقفنا من خط النفط **باكو – تبليسي – جيهان** تأثير قوي؟ هل بقي الخط سرابًا؟

ب. ف. ستيجني:[24] : إنه خط نفط سياسي. الجميع يعرف أن الخط يعمل بثلث طاقته فقط. الجميع يعرفون جيدًا أنه في المستقبل القريب إذا لم يتم توصيل الخط بأنابيب النفط التركمانية سيبقى الوضع كما هو عليه. **فأذربيجان** لا تمتلك الكمية من النفط التي تدعيها. غير أن سياستنا تجاه هذا الموضوع لم ترق لي في النصف الأول من العقد الماضي. فقد شاركت «**لوكا ويل**» في المشروع بنصيب 5–7 % . وعندما بدأ الأمريكان فعل كل شيء لحرماننا من امتلاك خطوط نقل غاز أو نفط بين الشرق والغرب. فقمنا نحن بسحب شركة **لوكا ويل** من المشروع بدلاً من التمسك بمشاركتنا في مشروع **باكو –جيهان**. كان ذلك خطأ كبيراً.

و كان هناك الكثير من نقاط الخلاف الأخرى بين الجانبين. انتقدت **موسكو** التدخل التركي في العراق الذي استهدف مواقع حزب العمال الكردستاني وقادة النضال المسلح ضد الحكومة المركزية من الأكراد الترك. لم ترحب روسيا بالتعاون الوثيق بين تركيا وإسرائيل في تلك الفترة. كما أبدت تركيا امتعاضها من نوايا روسيا بيع صواريخ **إس – 300** إلى قبرص. كان موقف البلدين من قضيتي البوسنة وكوسوفا متناقضًا تمامًا.

و فيما يتعلق بقضية الصراع بين **أرمينيا** و**أذربيجان** كانت **أنقرة** تدعم **باكو** بالتأكيد فيما كانت **موسكو** تدعو إلى حل سياسي للأزمة، وكان هذا الموقف داعمًا للأرمن في نظر الأتراك. وبالفعل أصبح التعاون بين **روسيا** و**أرمينيا** أكثر قوة.

تســـممت العلاقات **الروســـية التركية** أيضًا بفعل النشـــاط المتزايد لتركيا في منطقة آسيا الوســـطى والأحداث في **الشيشـــان**، خاصة أن الموقف التركي دائمًـــا كان يبدو وكأنه ضد **روسيا**.

المؤلِّف: عندما كان **ديميريل** (رئيس وزارء تركيا 1991-1992 ثم رئيسًـــا لتركيا من 1993-2000) ما زال في الســـلطة عادت أحلام الهيمنة التركية التي كانت قد توارت في التاريخ : "سنصبح زعماء للأمم التركية في العالم التي انفصلت عن روسيا". أخذ الأتراك ينفقون المال في بناء المدارس والكليات ودعوة رجال الأعمال للمشاركة. قاموا بضخ استثمارات كبيرة في هذا المجال. ولكن ومع الوقت بدا أن الأمر أكثر صعوبة وتعقيدًا بالنسبة لهم. وكانت **روسيا** في صعود. لماذا بقيت الحكمة التركية تفرض نفســـها وبقى الشـــعور بالود تجاه **روسيا؟** وكيف لنا أن نفسر هذا التذبذب التركي في المشاعر؟

ب. ف. ستيجني: [25] بعد عام 1991م لم يستطع **الأتراك** فهم ما يحدث. فقد كنا في الاتحاد السوفيتي نعاني انهيارًا شاملاً، وكان ذلك باديًا للقاصي والداني. لم يفهم الأتراك طبيعة علاقاتنا مع آســـيا المركزية أو آســـيا الوســـطى وعلاقاتنا مع أوربا الشرقية أو كما يطلق عليها اليوم أوربا المركزية. كان توجه الرئيس **ديميريل** نحو الشرق، وكان يسعى إلى ملء الفراغ بالحد الأقصى الممكن. غير أنه لم يتمكن من ذلك.

لم يتوقع الأتراك أن تحدث الاستفاقة بهذه السرعة في بلدان آسيا الوسطى والقوقاز. كانت تلك البلدان دائمًا ضمن منظومة واحدة وهي المنظومة الســـوفيتية. توقع الأتراك أن ينهار كل شـــيء بمجرد انهيار المنظومة الحزبية الحاكمة. كانت تلك أوهام بالطبع أشاعها الغرب وغذتها التيارات القومية التي عملت على تشـــويه الصورة. وبشـــكل عام فهم **الأتراك** أنهم لن يبقوا طويلاً في آســـيا الوســـطى والمركزية. حقق هؤلاء بعض النقاط الإيجابية فقط في المناطق التي نجحوا في وضع أساس لتعاون اقتصادي. لم تكن **تركيا** أو **روسيا** على استعداد لأن ترى هذه البلدان تتراجع إلى مرحلة من الإقطاع والنظام القبلي. لن يكون هذا أمرًا يسعد البلدين.

المؤلِّـــف: ربمـــا لم تكن **تركيا** تمتلـــك قاعدة اقتصادية تكفي للعب دور متنامٍ في آســـيا الوسطى؟

ب. ف. ســـتيجني: لم يكن هناك اســـتقرار. لكن كانت هناك بقايا وشائج وعلاقات ثقافية.

المؤلِّف: لم يوفق الأتراك في تنفيذ مشـــاريعهم العملاقة في آســـيا الوسطى. ولكن كيف كانـــت علاقتهم بالقوقاز وخاصة شمال القوقاز؟ ففي أثناء الحرب الشيشـــانية كانت الجالية الشيشانية في تركيا تعمل ضد مصالح **روسيا**، وكانت الحكومة التركية تغض الطرف عن ذلك.

ب. ف. ســـتيجني: بالطبع حدث ذلك. بدأت المشكلات حتى قبل الحرب الشيشانية بـــل عندما تم تأســـيس اتحاد موالٍ لأمريـــكا يضم جورجيـــا وأوكرانيا وأوزبكســـتان وأرمينيا ومولدوفيا. حاول الأمريكان من خلال هذه التكتلات الجمع بين البلدان الســـوفيتية السابقة التي تنتهج «**الإصلاحات الديمقراطية**». ودعم الأتراك الفكرة في البداية غير أن هذا التكتل ســـرعان ما تم تجميده. كان موقف **تركيا** من القوقاز ذا طبيعة خاصة. حيث يعيش في **تركيا** حوالي سبعة ملايين شخص من جذور قوقازية بما فيها من **جورجيا**.

المؤلِّف: يعتبر هؤلاء أنفسهم أتراكًا إلا أنهم لا ينسون أصولهم.

ب. ف. ســـتيجني: تم اســـتئناف أواصر القرابة بين الشيشـــان وأقربائهم في تركيا. كان الشيشـــان في تركيا يدرســـون ويتلقون العـــلاج. كانت هناك معســـكرات إقامة بالقرب من **إســـطنبول** للأشخاص الذين لا يحملون أي جنسية. ثم سرعان ما تغيرت العلاقة بعد وصول أردوغان إلى السلطة. فقد اعتبر أن الشيشان — « ليست قضيتنا». وصل **أردوغان** إلى الحكم وفي جعبته جدول أعمال خاص به. حدث ذلك في العقد الماضي.

و لكن شـــهدت حقبة التسعينيات تمكن البلدين من العثور على أرضية أرحب للتعاون المتبادل. وفي أثناء الزيارة التي قام بها إلى **موســـكو** في مايو 1998 قام رئيس الأركان التركي الجنرال **إســـماعيل كارادي** ونظيره الروسي بالتوقيع على اتفاقية تعاون عسكري بما فيه إعداد الكوادر ومناورات مشتركة وشراء معدات عسكرية. [26] وكانت تلك خطوة غير متوقعة بالنسبة لبلدان حلف **الناتو**.

و إذا ما قمنا بتقييم مقاربات البلدين تجاه علاقاتهما في التسعينيات، يمكنا القول باختصار إنهما كانا يســـعيان إلى توســـيع التعاون المتبادل وتقليص أو تجاهل نقاط الخلاف. وقد سمح ذلك بتهيئة الظروف لتنمية وتطور سريع للعلاقات بين البلدين في العقد الماضي.

خطوات صعبة نحو التقارب[27]

أطلق الإيرانيون على **روسيا** الجديدة «**الشيطان الأعظم الثاني**». شهدت الحقبة السوفيتية بداية تنشـيط وتفعيل التعاون الثنائي: ففي يوليو 1989م قام السيد **هاشمي رافسانجاني** بزيارة إلى الاتحاد السوفيتي، وتم التوقيع على إعلان مبادئ واتفاقية تعاون عسكري وعدد من البرامج.

و في ظـل الظروف الجديدة حينها، كانـت هناك الكثير من نقاط الخلاف والالتقاء بين البلدين. رفضت القيادة الإيرانية دعم الانفصاليين في **الشيشـان** بسـبب مخاوفها من تكرار الأمـر في داخل إيران وهـي البلد متعدد القوميات. كانت هنـاك حقيقة يتذكرها الإيرانيون على سـبيل المثال مفادها أن عدد الأذربجانيين في إيران ضعف عددهم في أذربيجان نفسها. كمـا أن الأكـراد كان في مقدورهم الإفصـاح عن آمالهم القومية مـن جديد. ولكن وعند تقييمهم للأحداث في **الشيشان** أبدي الإيرانيون بادرة طيبة تجاه **روسيا**. وفي الأزمة الأرمينية الأذربيجانية دعمت طهران أرمينيا بوضوح، وهو ما عضَّد الموقف الروسي المحايد الذي يهدف الى تحقيق تسوية سياسية للأزمة.

كان الطرفان متفقين على مواجهه **طالبان** في **أفغانستان** وقاما بدعم **الطاجيك** و**الأوزبك** في مجابهتهم. واسـتمر ذلك حـتى تمكنت **طالبان** في أغسـطس 1998 من احتلال **مزار شـريف**، واقتربوا من حدود **أوزبكستان** و**طاجكستان**. وعمل الطرفان على التوصل إلى حل وسط بين المعارضة الإسلامية المسلحة والحكومة العلمانية في **طاجكستان**. ولاحظ المسئولون في **موسـكو** أن إيران تدعم الاتصالات بالبلدان الإسلامية في رابطة الدول المستقلة وتساعد الإسلاميين في **طاجكسـتان** عسكريًّا وماديًّا على الرغم من أنهم من السنة. وتلقى المقاتلون **الطاجيك** تدريباتهم العسـكرية في معسكرات إيرانية كما كان مقر القيادة يقع في إيران. غير أن كلا الطرفين كان يرغب في اسـتقرار الوضع في **طاجكسـتان**، وقد توجت جهود البلدين في النهاية بالنجاح.

كمـا تطابقت في فترات مصالح البلدين في منطقة **بحـر القزوين** بثرواته النفطية الهائلة. في البداية صَّرحت **موسـكو** و**طهران** أن معاهدة الأمم المتحدة للحقوق البحرية الموقَّعة عان 1982م لا يمكن تطبيقها على بحر مغلق كبحر القزوين وأن الاتفاق السوفيتي الإيراني الموقع

في عامي 1921 و1940 يمكن أن يكون أساسًا لتقسيم الحقوق المائية والثروات البحرية مع بعض التعديلات أخذًا في الاعتبار مصالح البلدان الجديدة التي لها حدود على البحر وهي **كازاخستان** و**أذربيجان** و**تركمنستان**. لم تكن تلك البلدان الثلاثة قد حصلت على استقلالها بعد في بداية التسعينيات، وكانت ترغب في إقرار هذه الاتفاقية التي تسمح بتقسيم الحدود البحرية دون تدخل من **طهران** و**موسكو**. ووقعت كل من **كازاخستان** و**روسيا** في 6 يوليو 1998م اتفاقية تقسيم ثروات بحر القزوين، وهو ما أدى إلى حدوث توترات بين **موسكو** و**طهران**. وكانت تلك سابقة أيضًا في العلاقات الروسية الأذربيجانية.

و في مارس 2001م وأثناء الزيارة الرسمية التي قام بها الرئيس الإيراني **خاتمي** إلى **موسكو** تم التوقيع على الإعلان المشترك حول الوضع القانوني لبحر القزوين، وتم الأكيد على قانونية اتفاقيات عامي 1921 و1940. و تم الإعلان أن كلا البلدين لن يقومًا بالاعتراف بأي حدود على **بحر القزوين** إلى أن يتم استكمال النظام القانوني لاستغلال مياه **بحر القزوين**. وصرح الرئيس الإيراني حينها أن إيران توافق على تقسيم البحر بالتساوي بين خمس دول، وهي الدول المطلة على البحر. وأعلن الجانبان عن رفضهما لمد أي خطوط نفط أو غاز في أعماق البحر»[28].

و ارتفع حجم التبادل التجاري بين **روسيا** و**إيران** في التسعينيات. وعلى الرغم من كونها تقل عن حجم التبادل التجاري الروسي التركي فإنها كانت تتميز بالتنوع. وافقت **روسيا** على إمداد إيران بطائرات **ميج 29** و**سو 24** وفق بنود اتفاقيات وقعت أثناء الفترة السوفيتية (ولم يتم إدراج قيمة هذه الصفقة في بيانات حجم التبادل التجاري).

إلا أن **روسيا** أظهرت قدرًا كبيرًا من الحذر في التعاون العسكري مع إيران احترامًا للموقف الأمريكي. ففي عام 1995م تم توقيع اتفاقية بين نائب الرئيس الأمريكي **جور** ورئيس مجلس الوزراء الروسي **تشيرنوميردين**. والتزمت **روسيا** بموجبها بعدم إبرام أي اتفاقيات أو صفقات عسكرية جديدة مع إيران رغم أنها احتفظت بحقها في تنفيذ الاتفاقيات التي سبق توقيعها في الحقبة السوفيتية.

و عندما زار وزير الخارجية الإيراني **كمال خرازي موسكو** في فبراير 1998 صرّح وزير الخارجية الروسي **يفجيني بريماكوف** أن **روسيا** لن تبحث اتفاقيات جديدة لبيع سلاح إلى إيران ولكنها ستقوم بتنفيذ بنود الاتفاقيات القديمة. ولم تستجب **روسيا** حينها لطلب إيران

شراء صواريخ **إس – 300** أرض جو والتي كانت **روسيا** قد وعدت بتصديرها إلى **قبرص**.

و في يناير 1995م وبعد سنوات من المفاوضات وتوقيع عدد من الاتفاقيات التمهيدية قامت **روسيا** بالتوقيع على عقد ببناء محطة للطاقة النووية في مدينة **بوشهر** الإيرانية بقدرة تبلغ ألف ميجاوات وتبلغ كلفتها 1. 2 مليار دولار.

و من الناحية الشكلية، كان ذلك مواصلة لعملية بناء المشروع، بعد أن قامت شركة **سيمنس** بفسخ العقد والانسحاب منه، كما كانت القوات العراقية قد قصفت جزءًا من المباني الخاصة بالمحطة تحت الإنشاء. كان ذلك مشروعًا جديدًا في الواقع، وقد بدا سريانه في يناير 1996م.

و قد حاولت **الولايات المتحدة الأمريكية** عبر الطرق الدبلوماسية أو القنوات التجارية إفشال هذه الصفقة وعبَّرت **موسكو** عن دهشتها من الانتقادات الأمريكية لمشاركة **روسيا** في البرنامج النووي السلمي الإيراني. وصرَّح السيد **بوسوفاليوك** إلى الصحفي **جريش** : "بالفعل نقوم بمساعدة الإيرانيين في بناء محطة طاقة نووية في **بوشهر**، ولكن هذا المشروع سيكون تحت رقابة صارمة من الوكالة الدولية للطاقة الذرية. نحن نقوم بكافة التزاماتنا الدولية على أكمل وجه" [29].

وشهدت التسعينيات التوقيع على عدد من اتفاقيات التعاون في المجال لقانوني والجنائي وفي اقتصاد السوق والتعاون التجاري، وإلغاء الازدواج الضريبي. وفي 11 سبتمبر 2000 وقَّعت روسيا وإيران والهند على اتفاقية إنشاء ممر نقل دولي «**الشمال – الجنوب**» لضمان نقل البضائع من أوربا إلى بلدان الخليج العربي المحيط الهندي.

وفي 12 مارس 2001م وأثناء زيارة **خاتمي** تم التوقيع على معاهدة تضع قواعد للعلاقات المتبادلة ومبادئ التعاون بين روسيا الاتحادية والجمهورية الإسلامية الإيرانية، حيث تم إرساء الأسس القانونية لإقامة علاقات ثنائية طويلة الأمد في المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية.

والتزمت كل بلد بعدم استخدام القوة أو التهديد بها في العلاقات الثنائية وعدم استخدام أراضيها في توجيه اعتداء أو القيام بأي أعمال تقوض استقرار البلد الآخر أو تدعم قوى انفصالية. وفي حال تعرض أي من البلدين لعدوان من جانب طرف ثالث فإن الدولة تلتزم بعدم تقديم أي دعم عسكري للمعتدي أو اتخاذ أي إجراء يساعده على الاستمرار في

العــدوان، ويجب أن تعمل على تســوية الخلافات انطلاقًا من مبــادئ ميثاق الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولي. [30]

و قد صرَّحت الدبلوماسية الروسية والقيادة الروسية أكثر من مرة بعدم رغبتها في أن تمتلك أي بلد على حدودها أســلحة دمار شــامل. ولم تبد **روسيا** أي دعم لإيران من أجل امتلاك برنامج صواريخ رغم أنه من غير المســتبعد أن تكون هناك صفقات ســرية قد تمت بعيدًا عن أعين الحكومة. ففي نوفمبر 1997م تم طرد مواطن **إيراني** من **روســيا** حيث حاول الوصول إلى تكنولوجيا مرتبطة بصناعة الصواريخ.

و في مايو 1998م شــددت **موسكو** من مراقبتها لصادرات كافة شركاتها التي تعمل في مجــال تصنيع التكنولوجيا النووية والصاروخية. وصرَّح الممثل الرسمي للرئيس الروســي **بوريس يلتســين** : "إن نشــر أي نوع من الأسلحة النووية أو أســلحة الدمار الشامل والتكنولوجيا المرتبطة بها أو بإنتاجها ونقلها وخاصة في البلدان التي تملك حدودًا مشتركه معنا هو أمر يمثل خطورة وتهديدًا كبيراً للأمن الروسي" [31].

و على الرغم من تصريح **يلتســين** أصدر **الكونجرس** و**مجلس الشــيوخ** الأمريكي قرارًا بفرض عقوبات على الشــركات التي هناك شــواهد على قيامها بدعــم البرنامج الصاروخي الإيراني. ووقَّع الرئيس **كلينتون** على مرســوم بمعاقبة تسع شركات ومؤسسات روسية حامت حولهم الشــكوك في تقديم الدعم لإيران في برنامجها الصاروخي. وصرح المسئولون الروس أنهم يقومون بالتحقق من نشاط هذه الشركات التسع.

و بعد انتخاب السياســي المعتدل **محمد خاتمي** رئيسًــا لإيران في مايو 1997 سعت الإدارة الأمريكيــة إلى التقــارب مع إيران. وفي مايو 1998 توقفت **واشــنطن** عن الملاحقة القانونية لشركات «**توتلل**» الفرنسية و «**غاز بروم**» الروسية و «**بيترناس**» الماليزية والتي سبق وأن وقَّعت اتفاقيات مع إيران لاستكشاف الغاز. كان ذلك مؤشرًا على تراجع **واشنطن** عن موقفها المتعنت.

و قــد نظرت القيادة في **موســكو** إلى التقارب الأمريكي الإيراني بســخرية نظرًا لأنه لم يكن قد تم تســوية الحسابات القديمة بين هذين البلدين وخوفًا من أن يؤدي التعاون الإيراني الأمريكي الاقتصادي المحتمل إلى تهميش الدور الروسي.

و لكن عندما وصل إلى سُــدة الحكم الزعيم المتشــدد **أحمدي نجــاد** في إيران في عام 2005م تم تجميد تطبيع العلاقات بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية.

وحتى الثمانينيات من القرن العشرين كانت الكويت هي الدولة الخليجية الوحيدة التي تقيم علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وبعد فشل المغامرة العراقية في الكويت عام 1991م افتتحت **روسيا** سفارات لها في بلدان الخليج العربي. وقدمت **المملكة العربية السعودية** قروضًا لروسيا بلغت 2. 5 مليار دولار، وقدمت الكويت قروضًا بلغت مليار دولار.

و بدأت الاتصالات شيئًا فشيئًا بين الجانبين. بدا رجال الأعمال الروس في التردد على هذه المنطقة بعد أن تمكنوا من الثراء السريع في **روسيا** خلال سنوات قليلة وأملاً منهم في تحقيق النتيجة نفسها في بلدان الخليج. كان الكثيرون منهم يتوقعون بسذاجة أن يتعاملوا مع شركاء سذج كانوا قبل قليل يمتطون الإبل. ولكن الواقع أظهر أنهم أمام شركاء ذوي خبرة كبيرة في الأعمال تلقوا تعليمهم في مدارس الغرب وجامعاته ويمثلون الجيل الثاني والثالث ويتفوق على نظرائهم الروس بشكل لافت. استغرق الروس وقتًا طويلاً للتأقلم مع ظروف هذه البلدان ولم يكن ذلك أمرًا يسيرًا. ولكن التسعينيات شهدت هجرة عدة آلاف من المواطنين الروس وعائلاتهم للاستقرار في الإمارات العربية المتحدة وكان معظمهم من رجال الأعمال ومهندسي الكمبيوتر وأصحاب الشركات السياحية.

و تمثل زيارة رئيس الوزراء الروسي **تشيرنوميردين** في 1994 الى المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات وعمان خطوة مهمة في سبيل تطوير العلاقات بين روسيا ودول المنطقة. أصبح هناك أمل في إرساء تعاون سياسي واقتصادي وحتى عسكري بين الجانبين.

غير أن الطريق إلى ذلك لم يكن سهلاً. فالمناخ السياسي كان مسممًا بالأحداث والتطورات في **الشيشان**. كانت هناك صناديق ومؤسسات خيرية في **المملكة العربية السعودية** تقوم بتمويل شراء الأسلحة وتوريدها إلى الانفصاليين **الشيشان**.

كانت مشاعر التعاطف مع المسلمين **الشيشان** تنتشر في كل بلدان الخليج وبلدان العالم الإسلامي كافة. تعرضت **روسيا** لحملة انتقاد عنيفة أثناء فعاليات لقاءات منظمة المؤتمر الإسلامي. ووقعت بعض العمليات الإرهابية التي قامت بها **القاعدة** ضد **المملكة العربية السعودية** وأحداث 11 سبتمبر 2001، وهو ما خفَّف من حدة المشاعر العدائية لروسيا في المنطقة لسنوات (وحتى اندلاع الأحداث في سوريا).

الشريك المأمول[32]

كانت مصر والاتحاد السوفيتي (**روسيا**) شريكين وحليفين في الماضي أثناء الحرب الباردة، إلا أنهما سارا في طريقين متباعدين أثناء السبعينيات. ومع بداية التسعينيات سعى الطرفان إلى التقارب تدريجيًّا. وقد ساعد على ذلك بالطبع التحول الذي قام في العلاقات مع **واشنطن** وانتهاء الحرب الباردة. لم تعد تلك المصالح تتطابق في أغلبها. غير أن صعوبة إعادة تشكيل منظومة العلاقات الدولية والمصاعب الاقتصادية التي واجهت **روسيا** ومصر قد عَقّدت من تحقيق التقارب والتوافق في المواقف بين البلدين؛ ولذا فقد بدت زيارة الرئيس **مبارك** إلى **موسكو** في عام 1990 غير ذات معنى، ولم تؤتِ مباحثاته مع **ميخائيل جورباتشوف** بأي نتائج.

كانت بوصلة المصالح السياسية والاقتصادية المصرية تتجه غربًا وتحديدًا نحو **واشنطن**. وقد سمح ذلك لهذا البلد بالانضمام إلى تحالف معارض لصِدام في عامَي 1990-1991م والحصول على مكافأة سخية نظير ذلك. تم إلغاء 50 مليار دولار من الديون على مصر بما فيها ديون عسكرية للدول الغربية.

و قد أدى الفشل في إعادة استئناف العلاقات المصرية الروسية إلى انخفاض مستوى العلاقات التجارية والاقتصادية بشكل ملحوظ. تقلص حجم التبادل التجاري من 1.2 مليار دولار (في نهاية 1980) إلى 350 مليون دولار في عام 1991م. ومع انهيار الاتحاد السوفيتي توقف تمام مشاركة السوفييت في تنفيذ عدد من المشروعات الاقتصادية والاجتماعية في مصر. [33]

أصبحت مصر مركزًا للحراك السياسي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وظلت تحظى بأهمية إستراتيجية بالنسبة لروسيا. إلا أن القيادة الروسية تجاهلت تلك البلد بشكل مؤقت.

و قد حدث تراجع في مستوى العلاقات الروسية العربية بشكل عام والروسية المصرية على وجه الخصوص في بداية التسعينيات. واستمر التراجع لفترة قصيرة حيث فرضت الظروف والواقع والعلاقات التاريخية التي تعود إلى منتصف الخمسينيات والمشاريع العملاقة في المجالات الإنسانية والثقافية والاقتصادية التي شيدها السوفييت في بلدان المشرق العربي وبخاصة في مصر.

لم يتم تجميد الشراكة الاقتصادية بشكل تام ولكن اكتسبت العلاقات والاتصالات طابع عدم الانسجام والخلافات. ففي نوفمبر 1992م تم التوقيع على عقد بين وزارتي البترول والطاقة المصرية ومؤسسة «**تيخنوبروم إكسبورت**» الروسية. وبلغت قيمة مجموعة العقود الموقَّعة بتحديث عدد من وحدات سد أسوان وبناء خطوط نقل كهربائي حديثة بطول 130 كم 38 مليون دولار. [34]

غير أن الاتصالات السياسية استمرت، وكان من السهل إنعاشها مرة أخرى بفضل الدوافع القوي لدى الطرفين وسعي كل منهما للتقارب مع الطرف الآخر.

و في منتصف التسعينيات تم تبادل الوفود والذين تم اختيارهم بعناية من قيادة الجانبين، وهو ما عكس سعيًا منهما لوضع أساس وبداية لاستئناف العلاقات الروسية المصرية في المجالين السياسي والاقتصادي، ووضع أسس قانونية لها. كانت هناك حاجة إلى حل مشكلة المديونية المصرية للاتحاد السوفيتي. ثم تلى ذلك محاولة تجاوز تراكمات السبعينيات والثمانينيات. وفي نهاية عام 1994م قام نائب رئيس الوزراء الروسي **أو. دوفيدوف** بالتوقيع في القاهرة على اتفاقية تعاون اقتصادي وفني وبروتوكول تعاون في مجال الطاقة واتفاقية تسوية الديون المتبادلة والوصل بها إلى الصفر. وساعدت الاتفاقيات الموقعة على مشاركة الجانب الروسي في بناء وإعادة تأهيل عدد من المشروعات الصناعية وخاصة مجمع حلوان للحديد والصلب ومناجم الفوسفات. وفي فبراير 1995م قام وزير الدولة للتعاون الدولي المصري **يوسف بطرس غالي** بزيارة إلى **موسكو** (تم انتخاب عمه **بطرس غالي** في عام 1980 أمينًا عامًّا للأمم المتحدة بتأييد من الاتحاد السوفيتي). واستكمل الوزير المباحثات مع **دوفيدوف**. وفي مارس 1995 قام وزير الخارجية الروسي **كوزيريف** بزيارة إلى القاهرة، حيث استقبله الرئيس **حسني مبارك**. وتم مناقشه القضايا المُلحَّة والمحورية التي تمس مصالح البلدين والتسوية الشرق أوسطية والعلاقات الثنائية بين البلدين.

و بعد الإنعاش التدريجي للتعاون الاقتصادي والسياسي بين **مصر** و**روسيا** سعى الجانبان إلى استئناف التعاون العسكري والفني. ففي يوليو 1996م قام النائب الأول لوزير الدفاع الروسي **أ. كوكوشين** بزيارة إلى القاهرة. كما زار القاعدة العسكرية البحرية في الإسكندرية التي كان الاتحاد السوفيتي قد ساهم في تجهيزها بالمعدات والأسلحة.

و في مارس 1996م تم في القاهرة انعقاد مؤتمر «روسيا والعالم العربي: آفاق التعاون الاقتصادي» بمشاركة وفد روسي برئاسة نائب وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية

ف. كاراستين. وضم الوفد 120 رجل أعمال روسيًّا أغلبهم من محافظة **موسكو**. كما ضم الوفد المصري مئات رجال الأعمال المحليين برئاسة الدكتور **أحمد جويلي** وزير التموين والتجارة الداخلية المصري. وجرى تنظيم المؤتمر برعاية مباشرة من الرئيس **حسني مبارك** ورئيس الوزراء **كمال الجنزوري**. وقد حظي **مؤلف هذا الكتاب** بفرصة المشاركة في تنظيم المؤتمر، ورأيت حينها أنه يمثل خطوة مهمة في البحث عن آليات للتغلب على المعوقات التي تقف أمام تحقيق الشراكة التجارية بما فيها توفير الاعتماد للصفقات والتأمين والنقل وغيرها من المشاكل المُلحَّة.

و قد أصبحت السياحة الروسية إلى بلاد الأهرامات في تلك الفترة قناة جديدة للتعاون. ففي عام 1995م زار **مصر** (111) ألف سائح روسي. [35] وبالطبع يبدو هذا الرقم متواضعًا إذا ما قورن بما أصبح عليه بعد مرور 20 عامًا إلا أنها كانت بداية مشجعة وقوية.

و في عام 1996م، وبعد توطيد العلاقات الاقتصادية والتجارية تم تفعيل الاتصالات السياسية بين البلدين. ففي أبريل 1996م وفي إطار جولة شرق أوسطية قام وزير الخارجية الروسي **يفجيني بريماكوف** بزيارة إلى **القاهرة**. أشار **بريماكوف**: «إن حضوري إلى الشرق الأوسط هو بدافع السعي إلى تقوية وتفعيل دور **روسيا** في التسوية الشرق أوسطية. وعلى المصريين أن يكونوا على ثقة أن **روسيا** ستنتهج سياسة تهدف إلى تنفيذ كافة القرارات التي سبق اتخاذها وستقوم بكل ما في وسعها لتنفيذ المقاربات التي تم الاتفاق عليها والمضي قدمًا إلى الأمام» [36].

ولم تتوقف الاتصالات والتعاون بين **مصر** و**روسيا** في المجالين الثقافي والديني. ومن أمثله ذلك قرار المجلس العلمي **لجامعة الأزهر** بالقاهرة بالإشادة بترجمة معاني **القرآن الكريم** للمستشرقة الروسية **فاليريا بروخوروف**. حيث صرح علماء الأزهر عن الترجمة الروسية الجديدة لمعاني القرآن : «**إنها أول ترجمة حقيقية لمعاني القرآن باللغة الروسية**». [37] وقبل هذه الترجمة صدرت ترجمتان لمعاني القرآن في **روسيا** الأولى في القرن التاسع عشر على يد المستشرق **جوردي سابلوكوف**، والأخرى في القرن العشرين على يد المستشرق الشهير **أغناطيوس كراتشكوفسكي**.

و في سبتمبر 1996م أهدى السفير الروسي في **القاهرة** إلى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية التابع لصحيفة الأهرام 16 وثيقة من الأرشيف الروسي ترتبط بالعلاقات

المصرية السوفيتية في الفترة بين 1958 والسبعينيات، ونشاط الرئيس المصري **جمال عبد الناصر**. [38]

و في معرض تناولها لزيارة فرقة مسرح **البولشوي** للقاهرة صرحت وسائل الإعلام المصرية: "إن الموسم المسرحي لعام 2000 يؤكد مرة أخرى على أن الروس قد أبدعو كنوزًا من الباليه العالمي" [39].

و كان للتعاون في مجال التعليم وخاصة التعليم الفني مكانة مهمة في سياق العلاقات المتبادلة بين البلدين. ففي بداية عام 2001م جرى بالقاهرة تنظيم سيمنار تحت عنوان «**التعليم العالي في روسيا**» شاركت فيه مجموعة من رؤساء الجامعات الروسية برئاسة **ف. فيليبوف** وزير التعليم الروسي.

و في عام 1997م توفرت معطيات جديدة وظروف تمهد لمرحلة جديدة من التعاون الروسي المصري حيث قام الرئيس **مبارك** بزيارة رسمية إلى **موسكو**. وكان من نتيجة الزيارة توقيع حزمة من الاتفاقيات وخاصة اتفاقية تجنب الازدواج الضريبي بين الحكومتين واتفاقية تشجيع حماية الاستثمارات والتعاون في مجال النقل البحري واتفاقية الدعم القانوني والعلاقات القانونية في القضايا المدنية والجنائية والتجارية ومذكرة التعاون في مجال الوقاية من الكوارث الطبيعية وبروتوكول تنظيم اجتماع للجنة الروسية المصرية للتعاون الاقتصادي والعلمي والفني.

و كتبت صحيفة **الأهرام ويكلي** الناطقة بالانجليزية : "لقد سافر الرئيس **مبارك** من **موسكو** بمساع ليس فقط لرفع مستوى العلاقات الاقتصادية الثنائية. كان الرئيس يريد أيضًا أن تفهم **روسيا** أنه قد آن الأوان كي تتحمل مسئولياتها بوصفها راعيًا رئيسيًّا لعملية السلام في الشرق الأوسط ويحذرها في الوقت نفسه أنها إذا استمرت في تجاهل علاقاتها مع العالم العربي فإن الأخير بدوره سينسى **روسيا**". [40]

و كتبت صحيفة أخرى نافذة وناطقة بالإنجليزية أيضًا وهي «**إيجبشن جازيت**»: «يتذكر المصريون حتى يومنا هذا المساعدات التي قدمها الاتحاد السوفيتي لمصر في بناء مشروعات صناعية ضخمة ومنها **السد العالي** و**مجمع حلوان للصلب** و**مجمع الألمونيوم** في نجع حمادي. والآن وبعد أن توارت الحواجز الأديولوجية والتحولات الاقتصادية والسياسية الراديكالية في كلا البلدين، أصبحت هناك ضرورة لبناء علاقات على أساس جديد». [41]

و اكتسب الحوار السياسي بين البلدين سمة الديمومة والثقة المتبادلة، وهو مؤشر مهم على التعامل المسئول بين الشركاء نحو توطيد العلاقات الثنائية وتوسيعها. وفي النصف الثاني من التسعينيات تم تجديد الاتفاقيات الحكومية الروسية المصرية ما ساعد على توسيع ومضاعفة التبادل التجاري. وقد دعمت مصر انضمام **روسيا** إلى منظمة التجارة العالمية.

و قام وزير الخارجية الروسي **سيرجي ايفانوف** بزيارة لقاهرة في عام 2001م. وفي أثناء لقائه بالرئيس **حسني مبارك** وصف الوزير الموقف المصري «**بالحكيم والصائب تمامًا**» وأنه يهدف إلى تحقيق السلام الدائم والعادل في المنطقة. وأشار الوزير الروسي إلى دعم المجتمع الدولي للمبادرة المصرية الأردنية، وتقرير اللجنة الدولية برئاسة **جورج ميتشيل**. وصرح **إيفانوف**: «إننا نعتقد أن هاتين الوثيقتين في حال تنفيذ بنودهما يمكن أن تساعدا على انطلاق عملية السلام من الحالة الصعبة التي تعيشها. وأن احتكار دولة واحدة لدور الوسيط في المفاوضات يدفع الموقف إلى طريق مسدود. يجب أن تلعب **روسيا** دورًا أكثر فاعلية.» [42]

و في مايو 2002م قام السيد **أحمد ماهر** وزير الخارجية المصري بزيارة إلى **موسكو**. وضم جدول الأعمال مناقشه القضايا المُلحَّة وأهمها دعم العلاقات الاقتصادية والتجارية والتي « لم يكن مستواها مرضيًّا **للقاهرة** و**موسكو** على السواء». كما بحث الطرفان بطبيعة الحال الموضوعات التقليدية : عملية السلام في الشرق الأوسط والوضع في العراق ولبنان والسودان. وتحدث الطرفان عن ضرورة حل مشاكل المنطقة بالسبل السلمية والدبلوماسية.

و منذ منتصف التسعينيات احتلت مشكلة **شمال القوقاز** وبخاصة **الشيشان** مساحة مهمة في الحوار بين روسيا والعالمين العربي الإسلامي ومع مصر.

و قد اتخذت مصر موقف الحياد الإيجابي في قضية **الشيشان**. ومن منطلق دور مصر الدولي في العالم الإسلامي وسعى **القاهرة** إلى تطوير علاقاتها الودية مع **روسيا** سعت القيادة المصرية إلى التوصل إلى حل لعقدة **القوقاز**. دعمت مصر الحل السلمي للمشاكل المتراكمة في هذه المنقطة مع الوضع في الاعتبار مصالح شعوب **القوقاز** ومع الاعتراف بأن مشكلة **الشيشان** هي شأن داخلي روسي. وعلى الرغم من التزام وسائل الإعلام المصرية بنغمة عاقلة في تقييم الأحداث في شمال **القوقاز** إلا أنهم كانوا يستقون الأخبار من مصادر غربية، وهو الأمر الذي كان له أثره في تنامي المشاعر العدائية تجاه **روسيا** من جانب المسلمين في **مصر**.

شهدت التسعينيات مرور العلاقات المصرية الروسية بمرحلتين من التطور: **مرحلة الجمود** واستمرت طوال النصف الأول من التسعينيات. و**المرحلة الثانية** هي تلك التي شهدت جهودًا من الطرفين لإحياء هذه العلاقات بهدف التغلب على هذا الضعف واستئناف التعاون بما يتفق وواقع العالم الجديد. ومنذ منتصف التسعينيات تشكّلت ظروف جديدة اقتصادية وسياسية تبعث على الأمل في إمكانية تحقيق هذا الهدف المهم للطرفين.

و مع بداية العقد الماضي أصبحت الروزنامة الدولية والإقليمية مكونًا رئيسيًّا في الاتصالات الثنائية بين البلدين. وساعد تطابق المواقف بينهما على تعميق التعاون. غير أن الضعف الاقتصادي الذي عانت منه **روسيا** واعتماد **مصر** على المساعدات الأمريكية وحجم التجارة الضخم بين مصر والغرب فرض عليها انتهاج سياسة خارجية معينة. كانت مصر بالنسبة لروسيا شريكًا مأمولاً. ولكن في ظل الظروف التي سادت حينها لم يكن بمقدور مصر أن تصبح بوابة موثوقًا بها لعبور **روسيا** مرة أخرى وعودتها إلى الشرق الأوسط.

(Endnotes)

1 لقاء صحفي مع يفجيني بريماكوف، يناير 2014م

2 ايفانوف إ. ، الدبلوماسية الروسية الجديدة. 10 سنوات من السياسة الخارجية، موسكو،2001م،ص. 4

3 لقاء صحفي مع إ. إيفانوف، سبتمبر،2014

4 Alain Gresh, "Russia's Return to the Middle East", Journal of Palestine Studies, Vol. 28, No. 1 (Autumn, 1998), p. 70.

5 Ibid. , p. 76.

6 لقاء صحفي مع رئيس مجلس الإفتاء الروسي رافيل عين الدين، يونيو 2013

7 Alain Gresh, Ibid, p. 68.

8 زيفياجليسكايا إ. ، الصراعات في الشرق الأوسط وسياسة روسيا، موسكو،2014،ص ص 176-177

9 المرجع السابق

10 لقاء صحفي مع ب. ستيجني، سبتمبر 2014

11 لقاء صحفي مع يفجيني بريماكوف، يناير 2014

12 لقاء صحفي مع ب. ستيجني، سبتمبر 2014

13 لقاء صحفي مع أ. بوفين، ابريل 1992

14 لقاء صحفي مع يفجيني بريماكوف، يناير 2014

15 «وقائع الأسبوع»، 4 سبتمبر 2008م

16 لقاء صحفي مع ب. ستيجني، سبتمبر 2014م

17 المرجع السابق

18 أ. اوليمبييف، المشكلات الدولية في الشرق الأوسط في الستينيات وحتى 2013، موسكو،2013،ص. 104

19 المرجع السابق، ص ص 151-152

20 المرجع السابق ص 152

21 المرجع السابق، 153

22 يفجيني بريماكوف، سري للغاية: الشرق الأوسط على مسرح الأحداث وخلف الكواليس، موسكو،2012،ص 326

23 مادة علمية جمعها أ. خودونوف

24 لقاء صحفي مع ب. ستيجني، مارس 2015

25 المرجع السابق

26 The Middle East, Russia and the New States, a monthly report, June 1998, European Press Agency, Brussels.

27 قام بجمع مادة هذا الفصل ن. فيلين ول. رافاندي وأ. خودونوف

28 ي. دونايفا، التحولات الجديدة في دبلوماسية بحر القزوين// الشرق الوسط والمعاصرة، الإصدار الحادي عشر، موسكو،2000، ص 87

29 Alain Gresh, Ibid, p. 72.

30 http://www. mid. ru/bdomp/spd_md. nsf/0/A3B11AE8762B343257E75004897F4

31 International Herald Tribune, 15. 05. 1998

32 http://www. mid. ru/bdomp/spd_md. nsf/0/A3B11AE8762B343257E75004897F4

33 International Herald Tribune, 15. 05. 1998

34 العلاقات المصرية الروسية// إفريقيا. موسوعة، موسكو، 2011م، ص 74

35 نبض الكوكب، 12 سبتمبر 1996

36 إيتار تاس، 16 سبتمبر 1996

37 تبض الكوكب ،3 أغسطس 2000

38 ايتار تاس، 16 سبتمبر 1996

39 نبض الكوكب، 3 أغسطس 2000

40 The Jamestown Foundation. September 11, 1997. Egyptian President to visit Moscow; www. egypt. mid. ru/arab/hist/Index. html.

41 العلاقـات الروسـية الإفريقية. تاريخ إفريقيا. موسـوعة، موسـكو،2011، ص ص 127-125

42 www. mid. ru/bdomp/dip-vest. nsf/99b2ddc4f717c733c32567870042ee43/b954a8e/